جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الاِتِّجَاهُ الْبَلَاغِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ الْكَشَّافِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ الْمُتَوَفَّى(٥٣٨هـ)

إعداد

د/ شهيدة مسعد علي مرعي
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية- بنات القاهرة

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الرابع .. نوفمبر)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الاتِّجَاهُ الْبَلَاغِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ الْكَشَّافِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ الْمُتَوَفَّى(٥٣٨هـ)

شهيدة مسعد علي مرعي

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: shahedahm480@azhar.edu.eg

الملخص:

إن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، المنزل على نبيه المصطفى، المعجز بتنزيله، المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سوره، المحفوظ بقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، وقد تصدى للوقوف على معاني القرآن الكريم وكشف كنوزه واستخراج دره، وإدراك مقاصده وغاياته، أساطين العلماء طلبا للفهم والإفهام لما ورد في القرآن من آيات وأحكام ، فالغاية من وراء جل الدراسات لا سيما اللغوية هي دراسة كلام الله وتحليله واستجلاء معانيه، من بين هذه الدراسات كان تفسير الزمخشري الذي أطلق عليه اسم "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، كشف فيه الزمخشري عن وجوه الإعجاز القرآني البلاغية، و بالأسلوبية، واللغوية، عامدًا إلى إخراج كشافه في أبهى حلة بيانية، ومما لحظته أن الدراسات حول كتاب الكشاف اهتمت بشرحه للآيات وتحليلها، ولكن لم تحظ مقدمته كسائر مقدمات التفاسير بالدرس والتحليل، وينهض هذا البحث إلى دراسة الاتجاه البلاغي وملامح التفكير عند الزمخشري من الناحية البلاغية في مقدمته وذلك بمعرفة أهمية المقدمة ، ومعرفة حضور الفنون البلاغية بها من خلال تحليلها تحليلا بلاغيا فجاء عنوان البحث "الاتجاه البلاغي في مقدمة الكشاف للزمخشري، وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة، والمبحثين كالتالي: قيمة المقدمات، التحليل البلاغي للمقدمة، خاتمة البحث.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، البلاغة، الإعجاز، الكشاف، الزمخشري.

"The Rhetorical Direction in the Introduction to Al-Kashshaf by Al-Zamakhshari, who died in 538 AH"

Shahida Musaad Ali Marey
Department of Arabic Language, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Cairo Girls, Al-Azhar University, Egypt
Email: shahedahm480@azhar.edu.eg

Abstract:
Praise be to God, the praise of the thankful, the praise of the one who aspires to the success of his Lord to gain understanding in his religion, and to guide him to contemplating his book and serving its revelation, and prayers and peace be upon the Master of Messengers, and prayers from the one who sincerely exhorts us by saying: Whoever God desires good for, He will give him understanding of the religion. As for what follows، The Almighty God's word, revealed to His Chosen Prophet, the Noble Qur'an is remarkable in its revelation, revered in its recitation, linked by its condensed surahs, and preserved by the Almighty's declaration, "Yes, We are the ones who have sent down the Remembrance, and We will preserve it." As one of the great scholars attempting to comprehend and make sense of the verses and rulings described in the Noble Qur'an, he has made an effort to discover the meanings of the text, unveil its jewels, extract its pearls, and realise its goals and objectives. The majority of studies, especially those focused on language, seek to understand, evaluate, and elucidate the meanings found in God's word. Al-Zamakhshari revealed the rhetorical, stylistic, and linguistic aspects of the Qur'anic miracle in his interpretation, which he named "The Revealer of the Mysterious Truths of the Revelation and the Eyes of God." Sayings on the Faces of Interpretation, one of these studies. Al-Zamakhshari's intention was to present his book in the most exquisite illustrative form. One of his discoveries is that the explanations and analyses of the verses in the book of Kashaf were the main focus of the research conducted on it; yet, the preface, like other introductions to interpretations, was not examined and scrutinised.The goal of this research is to examine Al-Zamakhshari's rhetorical features and direction in his introduction from a rhetorical point of view. Given the significance of the introduction and the rhetorical arts it contains, this research is entitled "The Rhetorical Direction in Al-Kashshaf by Al-Zamakhshari". There is an introduction, two sections, and a conclusion to the research. The following are the two sections :The significance of the introductions , A rhetorical examination of the introductions , Final thoughts on the study

Keywords: The Holy Quran, Rhetoric, Miracles, Scout, Zamakhshari.

مقـــــدمـــــة

الحمدُ للهِ حمدَ الشاكرين، حمدَ مَنْ يطمعُ في توفيق ربِّهِ للتفقُّهِ في دينِهِ، وفي هدْيِهِ لتدبُّرِ كتابِهِ وخدمةِ تنزيلِهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدِ المرسلين، صلاةَ مَنْ رام إخلاصَ الاتِّعَاظِ بقوله: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"(١).

أمَّا بعدُ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هو كلامُ الله ﷻ، المنزَّلُ على نبيِّه المصطفى ﷺ، المعجزُ بتنزيله، المتعبَّدُ بتلاوته، المتحدي بأقصر سوره، المحفوظ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، وقد تصدَّى للوقوف على معاني القرآن الكريم وكشف كنوزه واستخراج دُرَرِهِ، وإدراكِ مقاصده وغاياته، أساطين العلماء طلبًا للفهم والإفهام لما ورد في القرآن من آيات وأحكام، فالغاية من وراء جُلِّ الدراسات لا سيما اللُّغويَّة هي دراسةُ كلامِ الله وتحليلُهُ واستجلاءُ معانيه، ومن بين هذه الدراسات كان تفسيرُ الزمخشري الذي أطلق عليه اسم "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"؛ كشف فيه الزمخشري عن وجوه الإعجاز القرآني البلاغيَّة، والأسلوبيَّة، واللغويَّة، عامدًا إلى إخراج كشَّافِهِ في أبهى حُلَّةٍ بيانيَّةٍ، ومما لحظته أنَّ الدراساتِ حولَ كتاب الكشاف قد اهتمَّت بشرحِهِ للآياتِ وتحليلِهَا، ولكن لم تحظ مقدمتُهُ كسائرِ مقدِّمات التفاسير بالدَّرْس والتحليل، وينهض هذا البحثُ إلى دراسةِ الاتِّجاهِ البلاغيِّ وملامحِ التفكيرِ عند الزمخشريِّ من الناحية البلاغيَّة في مقدمته، وذلك بمعرفة أهمية المقدمة، ومعرفة حضور الفنون البلاغية بها من خلال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، عن معاوية بن أبي سفيان، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، حديث رقم (٧١).

تحليلها تحليلًا بلاغيًّا، فجاء عنوانُ البحثِ "الِاتِّجَاهُ الْبَلَاغِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ الْكَشَّافِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ الْمُتَوَفَّى (٥٣٨هـ)".

أما الدراسات السابقات في هذا الموضوع؛ فلم يتعرض أحد قبل ذلك لمقدمة الكشاف للزمخشري من حيث دراستها دراسة بلاغيَّةً.

وقد جاء البحث في مقدمةٍ عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث إجمالًا، وتمهيدٍ عن الزمخشريِّ حياتِهِ العلمية ومولدِهِ ووفاتِهِ، وكتابِهِ الكشَّاف، ومبحثيْن هما:

١–قيمة المقدمة وأهميتها في التأسيس المنهجيِّ للكتاب.

٢–مقدمة الكشَّاف دراسةٌ بلاغيَّةٌ.

ثمَّ الخاتمة، وفيها أهمُّ النتائج التي توصل إليها البحث.

***

تمــهيـــد

الزمخشريُّ ومكانة البلاغة في تفسيره

الزمخشري[1]:

هـو أبـو القاسـم محمـود بـن عمـر بـن أحمـد، الزمخشـري جـار الله، ولـد بـ(زمخشر) من أعمال خوارزم في رجب سنة (٤٦٧هـ)، وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، ودخل خراسان مرارًا عديدة، وما دخل بلدًا إلا واجتمع عليه أهلُها وتتلمذوا له، وما ناظر أحدًا إلا وسلَّم واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمامَ عصرِهِ[2].

موطنــه:

نُسـب الزمخشـري إلـى زمخشـر، وهـي قريـةٌ مـن قـرى خـوارزم، وخـوارزم وجرجانـة التـي هـي متقلبـه ومثـواه لهـا خصـائص ماديـةٌ ومعنويـةٌ؛ فالماديـة أنهـا موفورة الخيرات تقع على حدود الدولة الإسلامية؛ مما أثَّر ذلك في سكانها، فهم

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان، نشر دار صادر، بتحقيق: إحسان عباس، ج٥، ص١٦٨. محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ-١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، بتحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، ١٩٨٥م، ج٢٠، ص١٥١ وما بعدها. محمد بن أحمد الذهبي، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت، بتحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج٢، ص٤٥٥. إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤هـ-١٣٧٢م)، البداية والنهاية، نشر: دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة، بتحقيق: علي شيري، ط١، ١٩٨٨م، ج١٢، ص٢٧٢. محمد القرشي (٧٧٥هـ-١٣٧٣م)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، كراتشي، باكستان، بتحقيق: مير محمد، ج٢، ص١٦٠. نعمان بن محمود الألوسي (١٣١٧هـ-١٨٩٩م)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، نشر مطبعة المدني، ١٩٨١م، ص١٥٢وما بعدها.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج١، ص ٣٠٤.

مسلمون متحمِّسون لدينهم يدافعون عنه باللسان والسنان، فكانوا صياقلة بيان ورجال صيال، وعن خصائصها المعنوية أن أتيح لهذا الإقليم رؤساء عُنُوا بالعلوم والآداب، فنبغ في هذا العصر كثيرٌ من علوم الدين واللغة....، وقد كان الزمخشريُّ أعجميًّا يتعصب للعروبة ولِدِينِها ولغتها، وعلى الأرجح أنه كان فارسيًّا؛ لأن بيئته فارسيَّةٌ، ولأنَّهُ كتب باللغتين العربية والفارسية، وكان مَعْنِيًّا بتعليمِ الفُرْسِ اللسانَ العربيَّ(١).

شيوخه:

محمود بن جرير الضبِّيُّ الأصفهانيّ (٥٠٧هـ) في الأدب وعلم الإعراب وعلم الكلام والتوحيد، وتأثر بمذهبه الاعتزاليّ، والشيخ أبو علي الضرير، والشيخ السديد الخياطي في الفقه، والحاكم الجشمي (صاحب تفسير تهذيب التفسير) الزيديّ المعتزليّ، وركن الدين محمد الأصولي(٢).

مؤلفاته:

طارت شهرته في الآفاق، وسارت بتصانيفه الركبان، وكثرت مؤلفاته حتى عدَّها المترجمون خمسين مؤلفًا في فنونٍ شتَّى، من بينها: التفسير والحديث واللغة والنحو والأدب والترجمة والفقه والحكم والأمثال العربية والزهد والجغرافيا، وغير ذلك من الفنون(٣). فكان من مؤلفاته: تفسير الكشاف، والفائق في غريب الحديث، والمفصل في النحو، والمستقصي في أمثال العرب، وربيع الأبرار

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد أبو موسى، بتصرف ص٥٢، ٥٣، ط٢، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة وهبة– القاهرة.

(٢) المفسرون حياتهم ومنهجهم، السيد محمد علي إيازي، ص٥٧٤، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، (طهران: ١٣٧٣)

(٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن، مصطفى الصاوي الجويني، ص ٤٩، ط٣، دار المعارف.

ونصوص الأخبار، وديوان الأدب، وأساس البلاغة، وأعجب العجب في شرح لامية العرب، والأنموذج في النحو، والنصائح الصغار، والفائق في غريب الحديث، ومقامات الزمخشري، ونوابع الكلم في اللغة، وغيرها.

وفاتـــه:

تُوفِّي-~- بقصبته ليلة عرفة (٥٣٨هـ) عن إحدى وسبعين سنة، وجاور بمكة، وهو إمامٌ كبيرٌ في التفسير، وفنون العربية كلها، والأنساب، وهو حنفيُّ المشرب، معتزليُّ المعتقد. لُقِّبَ بالخوارزميِّ؛ لأنه ولد في منطقة خوارزم في خراسان، ولُقِّبَ بالزمخشريِّ؛ لأنه ولد في قرية (زمخشر) في إقليم خوارزم، ولُقِّبَ بجار الله؛ لأنه جاور في مكة المكرمة عند البيت الحرام سنوات عديدة(١).

الكشَّافُ للزمخشريِّ

عُنوان الكتاب: الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

ألَّف هذا الكتاب وهو مجاورٌ في مكةَ، بعد أن جاوز الستِّينَ من عمره، وأتمَّه في سنتين وبضعة أشهر(٢)، وهو كتاب تفسيرٍ يكشف عن وجوه الإعجاز القرآني البلاغيَّة، والأسلوبيَّة، واللغويَّة، احتشد له مؤلفه، ليخرجه في أبهى حلةٍ بيانيَّةٍ، بيد أنَّ العلماء يحذِّرُون قارئيه من الاعتزاليَّات الاعتقاديَّة المبثوثة في تضاعيفه، ولكن هذا ليس مناطَ الحديثِ عنه، فهناك دراساتٌ كثيرةٌ تناولتِ الكشافَ بالدراسةِ من هذه الجوانب العقائدية، ليس هذا مجالَ ذكرِها، فالدراسة منصبَّةٌ على التعريف بأهمية المقدمات للكتب التي افتتحت بها.

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، (دمشق: ٢٠٠٨م)، ص ٥٣٢.

(٢) الخالدي، المرجع السابق، ص ٥٣٨.

وقد ذكر الزمخشريُّ في فاتحة كشَّافِه ما دعاه إلى تأليفه، فبيَّن أنَّ بعضَ إخوانِهِ اجتمعوا إليه وسألوه أن يُمْلِيَ عليهم الكشافَ عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، واستشفعوا عليه بكلِّ عظيمٍ، إلى أن رحل إلى مكة، وهو مع كل هذا يستعفي، حتى قابل الأمير، الشريف أبا الحسن بن وهاس، فصادف منه رغبةً كرغبةِ مَنْ سأله الإقدام، فلم يملك إلا الإذعان وتلبية أمر الإمام. ولقد أنهى تفسيره – كما يقول– في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه–، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة(١).

***

(١) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري بتحقيق أحمد عبد الموجود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، مكتبة العبيكان، (الرياض: ١٩٩٨م)، ج١، ص ١٩.

المبحث الأول:
قيمةُ المقدِّمة وأهميتُها في التأسيس المنهجيّ للكتاب

تعدُّ مقدمةُ الكتاب من أهمِّ عتباته، تأتي بعد العنوان في الترتيب وتتساوى معه في الأهمية، وتختلف عنه من حيث الإبهام والإيضاح، فطبيعة العناوين الاختصار والإيجاز، بخلاف المقدمة التي يضمِّنُها المؤلفُ المعلومات التي لم يستطع توضيحها بعنوانه، كما أنه يسرد في مقدمته الأمور التي يريد أن يوقف قارئ كتابه عليها قبل الشروع في القراءة والمطالعة لأبواب كتابه وأجزائِهِ، وبهذا تعدُّ المقدمةُ بالنسبة للعنوان مدخلًا أوسعَ لفهم مضامين الكتاب ومقاصد تأليفه وغيرها من العناصر.

وعن تعريف المقدمة، فهي عبارة عن "مقالٍ يُقدِّم به المؤلِّفُ أهمَّ المبادئ والمناهج التي سيقوم عليها مؤلَّفه فيما بعد[١]".

وقد وضع الزمخشريُّ بين يدي كشَّافِهِ مقدمةً موجزةً قوامُها ثلاثُ صفحاتٍ، تنتمي إلى ما يعرف بـ(المُقدِّمات المتصلة بالنصِّ)، تلك "التي تسبق النصَّ داخلَ الكتاب، ولكنها لا تحتسب ضمن أبوابه لطبيعتها الخاصة، كأداةٍ تمهيدية للنصِّ[٢]".

ويبدو أنَّ الزمخشريَّ لم يكن مولعًا بالإطناب في مقدمات المؤلَّفات، بل كان مقتصرًا للدرجة التي نجد فيها معظم كتبه لم يجاوزْ بعض صفحات، طالت صفحات الكتاب أو قصرت، ولتُراجِع مقدمات: (المستقصي في أمثال العرب)،

---

(١) عبقرية التأليف العربي (١٧٣).

(٢)عبقرية التأليف العربي (١٧٧) وورد في هذا الكتاب أيضًا أنَّ هناك نوعًا آخر من المقدمات التي تعرف بـ(المقدمات المنفصلة عن النص)، وهي التي أمكن فصلها عن الكتاب؛ نظرًا لكونها دراسةً مستقلةً تخطَّتْ موضوعَ النص وحدودَه، من مثل مقدمة ابن خلدون التي هي مقدمةٌ لموسوعته (العبر وديوان المبتدأ والخبر).

و(الكلم النوابغ)، و(المفصل في صنعة الإعراب) و(أطواق الذهب في المواعظ والخطب)، و(ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)، وغيرها من الكتب التي تبرهن على أنَّ الزمخشريَّ في مقدماته كان عازفًا عن الإطالة، مقتنعًا أيما اقتناع بالإيجاز فيها.

وبالحديث عن مقدمة الزمخشريِّ في كشَّافه، فقد تحدث فيها المؤلف عن الظروف المحيطة بالكتاب، مثل بيان الأسباب التي قادته إلى تأليفه، ومكان تأليفه؛ ومدة التأليف، كما ذكر الزمخشريُّ الأشخاصَ الذين كانوا مصدر إلهامٍ له، أو كانت منهم مساعدةٌ بوجهٍ من الوجوه، وأهمية تفسيره، كما أوضح المنهج الذي يسير عليه في مقدمته، هذا إجمالُ ما ورد في مقدمته.

وبالحديث تفصيلًا عن مقدمة الزمخشريِّ وأهميتها للكتاب يتوجب الوقوف على عناصر تلك المقدمة، ومدى استيعابها لما جرت عليه عادة كثيرٍ من المؤلفين في مقدمات مؤلفاتهم، فنجد حاجي خليفة في صدارة كتابه (كشف الظنون) قد أشار إلى أنَّ هناك رؤوسًا ثمانيةً جرت العادة على ذكر المصنفين لها في صدر (مقدمة) كل كتاب، وهي ما يأتي:

١. الغرض، وهو الغاية السابقة في الوهم، المتأخرة في التأليف. (ويعني بذلك الفكرة التي يبدأ بها المؤلف ويحققها في التأليف).
٢. المنفعة؛ ليتشوق الطبع، (أي لإثارة اهتمام القارئ).
٣. العنوان الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله.
٤. الواضع (أي المؤلِّف أو المصنِّف)؛ ليُعلم قدره.
٥. نوع العلم، وهو الموضوع؛ ليُعلم مرتبته، وقد يكون الكتاب مشتملًا على نوعٍ ما من العلوم، وقد يكون جزءًا من أجزائه، وقد يكون مدخلًا.
٦. مرتبة ذلك الكتاب، (أي متى يجب أن يقرأ، وهل هو للمبتدئين أم للمتخصصين في المجال؟).

٧. ترتيب الكتاب، (بالنسبة لكتب أخرى تقرأ قبله أو بعده في مراحل التعليم ومستوياته).

٨. نحو التعليم المستعمل فيه، وهو بيان الطريق المسلوك في تحصيل الغاية.(ويعني الأسلوب التعليمي الذي اتبعه المؤلف لتحقيق الغرض من الكتاب)[١].

وبتطبيق هذه العناصر على ما أورده الزمخشري في مقدمه كشافه لوحظ استيفاؤه لمجمل هذه العناصر، في قوله:

"رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليَّ في تفسير آيةٍ فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقًا إلى منصفٍ يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجتمعوا إليَّ مقترحين أن أملي عليهم "الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي، أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليَّ واجبةٌ؛ لأن الخوض فيه كفرضِ العين ما أرى عليه الزمان من رثاثةِ أحواله، وركاكةِ رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلًا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألةً في الفواتح، وطائفةً من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلامًا مبسوطًا، كثيرَ السؤال والجواب، طويلَ الذيول [والأذناب]، وإنما حاولتُ به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارًا ينتحونه ومثالًا يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهتُ تلقاءَ مكة، وجدتُّ في مجتازي بكل بلدٍ من فيه مسكة من

(١) ينظر: عبقرية التأليف العربي (١٧٥، ١٧٦)، وكشف الظنون (٣٦/١).

أهلها – وقليلٌ ما هم– عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المُمْلَى، متطلعين إلى إيناسه، حراصًا على اقتباسه، فهزَّ ما رأيتُ من عطفي، وحرَّك الساكنَ من نشاطي، فلما حططتُّ الرحْلَ بمكة إذا أنا بالشعبة السنيَّة، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن عليّ بن حمزة بن وهاس –أدام الله مجده– وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبدًا، وألهبهم حشًى، وأوفاهم رغبةً، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه– في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطيِّ الْمَهَامِهِ والوفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذتْ مني السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد(١)".

ففي هذا القول نجد عناصر المقدمة كما نص عليها الحاجي خليفة مذكورة على النحو الآتي:

أولا: ذكر الغرض الذي من أجله ألَّف كتابه، فقد ذكر الزمخشريُّ في مقدمة كشافه سبب تأليف كتابه هذا، وأوضح فيها ما كان منه من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولًا، ثم العزم المصمم منه على تأليفه حتى أخرجه للناس على صورته التي هي عليه الآن، فالغرض الأعم والأساس لتأليف الكتاب هو تفسيرُ كتاب الله عز وجل، والذي أصبح تأليفه كفرض العين عليه لما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلًا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص٣.

ثانيـــا: المنفعة التي ستعم من وراء هذا الكتاب، لإثارة اهتمام الطالب نجد الزمخشري لا يغفلها؛ وإن لم ينص عليها صريحة، بل صوَّرها بكلماته في غير موضع، بداية من اقتراح أهل العلم أن يملي عليهم تفسيره، بسبب إعجابهم واستحسانهم له، والاستشفاع بعظماء عصرهم ليلبي طلبهم إلى ذلك، مرورًا بمن وصفهم بأنهم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المُمْلَى، متطلعين إلى إيناسه، حراصًا على اقتباسه، من أهل البلد التي مرَّ بها الزمخشريُّ أثناءَ رحلته إلى مكة المكرمة، انتهاءً بتصويره الأمير الشريف أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس، فوصفه بأنه أعطش الناس كبدًا، وألهبهم حشًى، وأوفاهم رغبةً، حتى إنه من شدة رغبته في الحصول على ما أملاه الزمخشري على أصحابه ذكر أنه حدَّث نفسه بالوفادة على الزمخشري بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض.

ثالثا: العنوان الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله: فالعنوان "عبارة عن رسالةٍ، وهذه الرسالة يتبادلها المرسِل والمرسَل إليه؛ [إسهامًا] في التواصل المعرفي والجمالي، وهذه الرسالة مسننةٌ بشفرةٍ لغويَّةٍ، يفككها المستَقْبِل.. [(١)]"؛ فالعنوان هو كما ذكر سابقًا يعدُّ من أهم العتبات التي تلخص مضمون الكتاب ومجاله، ومن خلال العنوان يستطيع القارئ الولوج إلى مراد المؤلِّف من هذا التأليف، ويشاركه قناعاته التي أراد أن ينقلها إليه من خلال سطور كتابه.

وعنوان الكشاف هو رسالةٌ من الزمخشري إلى قُرَّائه، الذي من خلاله يبين لهم مضمونَ الكتاب ومنهجه، فعنوانه كما نصَّ عليه في المقدمة: "الكشف عن

(١) السيميوطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، يناير/ مارس ١٩٩٧م، ص ١٠٠.

حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، وقد أشار إلى هذا العنوان في مقام حديثه عن التفاوت والتباين في تناول العلوم، فنصَّ أنَّ الجهودَ المبذولة من العلماء في علمٍ من العلوم متقاربةٌ لا تتباين إلا في استطاعة استنباط دقائق المعاني ولطائفها والكشف عن غوامض الأسرار المحتجبة وراء الأستار؛ فيقول: "حتى انتهى الأمر إلى أمدٍ من الوهم متباعدٍ، وترقَّى إلى أن عد ألف بواحدٍ ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار"[(١)]، وعنوان الكشَّاف يدلُّ على براعة الزمخشري في "الالتفاف حول مشكلة التفسير والتأويل ومعانيهما وخصوصياتهما، ثم الجمع بينهما، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل تحيلنا إلى معاني التفسير وآلياته ومراميه، فالغموض والكشف مفاهيم متعلقة بالتفسير، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل واضحٌ في إحالة القارئ إلى مجال التأويل، مما يجعلنا أمامَ تفسيرٍ معقّدٍ يجمع في ثناياه مزايا كلا المفهومين أو العمليتين"[(٢)].

فالعنوان هنا –عنوان الكشاف– ينبئ عن منهجه الذي يتبعه في تفسيره، والذي يؤكده من خلال مقدمته، فما من علمٍ يمكنه من الوقوف على تلك الأسرار واستنباطها وكشف أغوارها إلا علوم البلاغة التي هي وثيقة الصلة بإعجاز القرآن الكريم وفصاحته.

رابعا: الواضع (أي المؤلف أو المصنف) ليعلم قدره، هو الزمخشري مؤلف الكشاف، والذي ضمن الحديث عن نفسه في مقدمته في أكثر من موضع، فهو من كان يرجع إليه في تفسير آيات القرآن، كما ذكر ذلك في قوله:

---

(١) مقدمة الكشاف، ص ١٩.

(٢) التمثيل والتخييل كآليات للتأويل عند الزمخشري في تفسيره الكشاف – دراسة للمنهج التأويلي، د/ صهيب أمين نادر، مجلة جامعة تكريت للعلوم ص٣٠٢، العدد(٥)، المجلد (١٩).

"رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليَّ في تفسير آية فأبرزتُ لهم بعضَ الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب...".

وكذلك الأمير الشريف حين أرد أن يسعى إلى الزمخشريّ من الحجاز إلى خوارزم؛ لينال قصده وهو تفسير القرآن الكريم، وما كان ذلك إلا لنبوغ الزمخشري وتفرده في تفسيره.

خامساً: نوع العلم، وهو الموضوع ليعلم مرتبته، وقد يكون الكتاب مشتملًا على نوعٍ ما من العلوم، وقد يكون جزءًا من أجزائه، وقد يكون مدخلًا.

والعلم المضمن في الكشاف هو التفسير لكتاب الله عز وجل، ورد ذلك في مقدمته في قوله: "ثم إنَّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يُبهر الألبابَ القوارح، من غرائب نكتٍ يلطف مسلكها، ومستودعات أسرارٍ يدق سلكها –علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم".

وقد نبَّه الزمخشريُّ في مقدمته أنّ تفسير القرآن لا يكفي فيه أن يكون المفسر من أئمة الفقه، أو النحو، أو اللغة، أو علم الكلام، أو القصص والإخبار. وإنّما ينبغي فيمن يتصدى له أن يكون بارعًا في علمَيْن مختصَّيْن بالقرآن هما: علم المعاني، وعلم البيان، وهذان– في نظره– أهمُّ عُدَّةٍ لمن يريد أن يفسر القرآن؛ إذ بدونهما لا تستقيم له الدلالات، ولا تتضح له الإشارات، ولا لطائف ما في الذكر الحكيم من الجمال المعجز الذي عنت له وجوه العرب وخرُّوا له ساجدين.

فالتفسير عنده ليس قاصرًا على معرفة معاني القرآن فحسب، وإنّما هو أيضًا بيانٌ لأسرار إعجازه، بل إنّ معرفة معانيه لا تتم إلّا لمن تمّت له آلة البلاغة، وعرف وجوه الأساليب وخصائصها المعنوية، وأدرك الأسباب المعينة

على تمييز صور الكلام البيانية[١].

بل إنَّه قد وضع أوصافًا مهمةً في مقدمته لا بد وأن يتَّصف بها المفسر، هذه الصفات بعضُها يرجع إلى فطرتِه وجبلَّتِه، وبعضها يحصل بالكسب والدأب، "فالصفات التي ترجع إلى الفطرة تدور حول الطبع المسترسل والقريحة الوقادة والنفس اليقظى، "فلا يكون المفسر جاسيًا ولا غليظًا جافيًا، ويجب أن تكون له قدرةٌ على إبداع القول الجيد، يعرف كيف يرتِّب الكلامَ ويؤلف، وكيف ينظِّم ويرصف"[٢].

وقد أوضح الزمخشريُّ أنَّه بعد توافر هذه الصفات فعلى المتصدي لتفسير كتاب الله أن يحصِّل قدرًا كافيًا من كل العلوم، وخاصة الفقه والعقائد والتاريخ، هذا بعد إلمامه بعلمي المعاني والبيان، فلا يتأتَّى لتفسير كتاب الله من يعتمد على المعرفة السطحيَّة التي لا تلج العقل ولا القلب.

ونجد أنَّ الزمخشريَّ قد أخذ نفسه بهذه الصفات وألزمها بهذه العلوم قبل التصدي للتفسير لكتاب الله عز وجل، فكان كتابه الكشاف في آخر عمره، وهذا ما ظهر جليًّا واضحًا في آخر مقدمته، حيث يقول: "قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقةٍ أخصرَ من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد[٣]، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ [منه] في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه–، وكان يقدر تمامه في

(١) علم البيان، لعبد العزيز عتيق:، ص٢٨، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٢م.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد أبو موسى، ص٩٣، ط٢، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، مكتبة وهبة، القاهرة.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص٣.

أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آيةٌ من آيات هذا البيت المحرم، وبركةٌ أفيضت عليَّ من بركات هذا الحرم المعظم، أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سببًا ينجيني، ونورًا [لي] على الصراط يسعى بين يدي وبيميني، ونعم المسؤول"(١).

فيذكر أنه حينما شارف الستين من عمره والمشار إليها بقوله: "وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب"، بدأ في كتابة هذا التفسير؛ استجابةً لما طلب منه من غير واحد، وقد أنجزه في مدة خلافة أبي بكر الصديق، وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى قصر المدة لعلو الهمة بغرض الانتهاء من هذا العمل الجليل، وقد خصَّ مدة خلافة أبي بكر الصديق بالذكر؛ لأنه أقصر الخلفاء خلافةً من بين الخلفاء، حيث كان المقرر للانتهاء من هذا التفسير ثلاثين عاما، وبذكر خلافة أبي بكر الصديق أراد الزمخشري أيضًا أنْ يشير إلى مكانة تفسيره في نفسه وكذلك في نفوس طالبيه، فكما أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه– كان أول من جمع القرآن الكريم، فكذلك الزمخشري هو أول من فسَّر القرآن الكريم بصورته التي عليها، فلم يكتفِ بتوضيح المعاني، بل صرف جلَّ اهتمامه إلى بيان إعجاز القرآن الكريم عن طريق نظمه.

وقد توافر للزمخشري في هذا الوقت كلُّ الأسباب التي ساعدته على الانتهاء منه في هذا الوقت القصير، فغير الإلمام بلغة العرب والوقوف على دقائقها ومسالكها، كان للمكان الذي ألف فيه دخلٌ كبيرٌ في الانتهاء، وهو مجاورته للبيت الحرام بمكة، فلم يقتصر على ذكر ذلك في مقدمته، بل في متن الكتاب في تفسيره قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، يقول الزمخشري في معنى الآية: "أن المؤمن إذا

(١) السابق: المقدمة ص٤.

لم يتسهل له العبادة في بلدٍ هو فيه، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب، فلْيهاجر عنه إلى بلدٍ يقدر أنه فيه أسلم قلبًا، وأصح دينًا، وأكثر عبادةً، وأحسن خشوعًا، ولعمري إنَّ البقاع تتفاوت في ذلك كلَّ التفاوت الكثير، ولقد جربنا وجرب أولونا، فلم نجد فيما دُرنا وداروا أعونَ على قهر النفس، وعصيان الشهوة، وأجمعَ للقلب المتلفت، وأضمَّ للهمِّ المنتشر، وأحثَّ على القناعة، وأطردَ للشيطان، وأبعدَ من كثير الفتن، وأضبطَ للأمر الديني في الجملة من سُكنى حرم الله، وجوار بيت الله، فللهِ الحمدُ على ما سهَّل من ذلك وقرَّب، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر"[(١)]، فالزمخشري يرى بركة جواره لبيت الله ﷻ أنْ أوجز تأليف كشَّافه في مدةٍ وجيزة.

سادسًا: مرتبة ذلك الكتاب، (أي متى يجب أن يقرأ، وهل هو للمبتدئين أم للمتخصصين في المجال؟).

سابعًا: ترتيب الكتاب، (بالنسبة لكتب أخرى تقرأ قبله أو بعده في مراحل التعليم ومستوياته).

لم يذكر الزمخشري في مقدمته نصًّا صريحًا يذكر فيه مرتبة كتابه وترتيبه بالنسبة للكتب الأخرى، وقد يكون السبب في ذلك يرجع إلى ذكره أهمية الكشاف المطلقة، دون تقييده بالمقارنة بكتبٍ أخرى، فبداية مقدمته نصَّتْ على حاجة الناس إلى هذا التفسير وكثرة الإلحاح في طلبه من غير واحدٍ، ومن بلادٍ مختلفةٍ، فطلبه أصحابه وهم أهل العلم من خوارزم، كما طلبه قاطنو الحجاز، وهذا ما جعل الزمخشري يغفل الحديث عن ترتيب تفسيره بين باقي التفاسير في المقدمة، ولكنه أنشد قائلًا [(٢)]:

(١) الكشاف (٢/٤٠٠).

(٢) ديوان الزمخشري، ص ٣٩٦.

إنّ التفاسير فــي الدنيا بلا عــددٍ ∴ وليس فيها لعمري مثــلُ (كشافي)

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ∴ فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ثامنًــا: نحو التعليم المستعمل فيه، وهو بيان الطريق المسلوك في تحصيل الغاية، (ويعني الأسلوب التعليمي الذي اتبعه المؤلف لتحقيق الغرض من الكتاب)[(١)].

وتعدُّ هذه النقطة مدارَ الدراسة في هذا البحث، فالبحث عبارةٌ عن قراءةٍ في مقدمة الكشاف دراسة بلاغية تحليلية، الغرض منها هل اتبع الزمخشري طرق الإبانة عند العرب، وهل كان له منهجٌ يتبعه في تفسيره قد ظهر في مقدمته؟

فالقرآن قد نزل معجزًا تحدى العرب جميعًا عن أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، ولكنهم بفطرتهم السليمة كانوا يعرفون إعجازه، وبعد أن زادت الفتوحات وانتشر الإسلام ودخل فيه أقوامٌ من كل فجٍّ عميق، واختلط العرب بغيرهم، لم يعد إعجازُ القرآن الكريم يُدرك بالفطرة السليمة؛ لبعدهم عن البيئة التي نزل بها، فأصبح يحتاج إلى إعمال فكرٍ وتوقد ذهن ودراسةٍ للغة ودقائقها، وهذا ما نبَّه عليه الزمخشريُّ في مقدمته مع كونه أراد لكشافه أن يكون مختلفًا عن جلِّ التفاسير، فنجده يثبت إعجاز القرآن الكريم من خلال نظمه وبلاغته، إلى جانب إعجازه بالإخبار عن الغيبيات، وهذا ما تؤكد عليه المقدمة منذ بدايتها إلى نهايتها، قولًا وتطبيقًا، فلم تخل جملةٌ من جمل الزمخشري في مقدمته من الألوان البلاغية، التي أرادها منهجًا في تفسيره، والذي به خالف وامتاز من غيره من المفسرين، فالزمخشريُّ لم تقتصر جهوده البلاغية في الكشف عند حدِّ التطبيق لقواعدها التي نقلها عن عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" فحسب؛ بل أضاف إليها أصولًا، ووضح أخرى لم تكن واضحةً عند

(١) عبقرية التأليف العربي (١٧٥، ١٧٦)، وكشف الظنون (٣٦/١).

عبد القاهر، "وإذا كان الزمخشري قد طبق كثيرًا مما قرره عبد القاهر، فقد أضاف فصولًا بلاغية لم يعرض لها عبد القاهر، ونمى كثيرًا من الأصول السابقة، وحرَّر كثيرًا من المسائل"(١).

والزمخشريُّ في مقدمته بعد افتتاحه بحمد الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، وتبيانه لهدفه من الكتاب أنه تفسيرٌ لكتاب الله ﷻ أخذ يوضح منهجه الذي يسير عليه في كتابه، ويلزم غيره من المفسرين ضرورةَ الالتزام به، فيبينه في قوله: "ثم إنَّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكتٍ يلطف مسلكها، ومستودعات أسرارٍ يدق سلكها – علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كلّ ذي علمٍ كما ذكر الجاحظ في كتاب "نظم القرآن"، فالفقيه وإن برز علم الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه– لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجلٌ قد برع في علميْن مختصيْن بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونةً، وتعب في التنقير عنهما أزمنةً، وبعثته على تتبع مظانهما همةٌ في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظٍّ، جامعًا بين أمرين تحقيقٍ وحفظٍ، كثيرَ المطالعات، طويلَ المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، ورد عليه، فارسًا في علم الإعراب، مقدمًا في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى، ص ٣٦.

وقَّادها، يقظان النفس، دراكًا للمحة وإن لطف شأنها، منتبهًا على الرمزة وإن خفي مكانُها، لا كزًّا جاسيًا، ولا غليظًا جافيًا، متصرفًا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه[١].

وقد وضع الكشاف من خلال مقدمته الشروط الواجب توافرها في المفسر لكلام الله، والتي تتلخص في الآتي:

- المعرفة بعلم الإعراب والمعاني والبيان معرفة تمكن، مع الإلمام بسائر العلوم الأخرى معرفة إجمالية.
- المعرفة بأساليب الكلام والتأليف بينه، كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف.
- مع معرفته وإلمامه بجلِّ العلوم، فلا بد أن يتصف المفسر برهافة الحس، واسترسال الطبيعة، واشتعال القريحة، ويقظة النفس.

وكل هذا لن يتأتى إلا لمن علم العربية وتعلمها وعلم طباع أهلها، كما فعل الزمخشري الذي كان يتنقل بين البوادي والأمصار يقابل العرب الخُلَّص، يجالسهم ويسمع منهم ويأخذ عنهم ويردون عليه، حتى صار فقيهًا في علوم العربية، فنجده في تفسيره قد أدخل القراءات واللغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم العربية، فقد كان يفيض في بيان القراءات ووجوهها، واختلاف معاني الأسلوب القرآني نتيجة لها، ولا ينسى في تفسيره ثقافته النحوية التي كان الزمخشري إمامًا فيها، فنجده يكثر من بيان الإعراب ووجوه النحو ويفيض من هذا المضمار، ويكثر الاستشهاد ببلاغة القرآن الكريم وبشعر المحدثين وكلامهم[٢].

فقال عنه الذهبي: "هو الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة، صـ.

(٢) إيازي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، بتصرف، ص٥٧٨.

والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتى العلوم"[١].

ومما سبق يتكشف لنا منهج الزمخشري في تفسيره للقرآن الكريم، فيقرر أنه لن يتأتى لأحدٍ من الخاصة – العلماء– التفسير وإن كان الأسبق والمتفرد في تخصصه، إلا إذا برع في علمين مختصين بالقرآن الكريم وهما علما المعاني والبيان، بعد إطالة النظر فيهما وطول مدارسة لهما، إلى جانب اتصافه بصفاتٍ كثيرةٍ لا بدَّ من معرفته بكيفية ترتيب الكلام وضمِّ بعضِهِ إلى بعضٍ ورصفه، وهو بذلك يتحدَّث عن النظم مجملًا، فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري: "يعني بيان الروابط والعلاقات التي بين الكلام، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضًا، وكيف يأخذ بحجزة"[٢].

وما كان هذا الاهتمام من الزمخشري بعلوم البلاغة إلا لعلمه بأن إعجاز القرآن كان ببلاغته ونظمه، فنراه في مقدمته لأساس البلاغة يقول: إن الله تعالى "أنزل كتابه مختصًّا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة، التي تقطعت عليها أعناق العتاق السُّبَّق، وونت عنها خُطا الجياد القُرَّح"[٣].

وكانت عناية الزمخشري بالبلاغة لإقراره بإعجاز القرآن الحاصل بأحكام معاني النحو الحادثة، من تأليف الكلم ونظمه، وقد عالجه الزمخشريُّ على نطاق واسع في تفسيره يشمل فيه جميع الآيات القرآنية، فوقفنا على مزية نظم القرآن، من ناحية الجمال الحادث عن أحكام معاني النحو، وتنبه إلى إيحاءات الألفاظ، وما تلقيه من ظلال معنوية، ونفسية، استجلى جمالها، وعرض للألفة النفسية والمعنوية بين الألفاظ المنظومة[٤].

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون، ح١، ص ٣٠٤.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محد أبو موسى، ص٢٣٦.

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري، ص ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م.

(٤) دور الزمخشري في المحافظة على أصالة اللغة العربية من خلال تفسيره "الكشاف"، ص١٧٣.

المبحث الثاني

مقدمة الكشاف دراسة بلاغية

يقول الزمخشريُّ –رحمه الله–:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْزَلَ الْقُرْآنُ كَلَامًا مُؤَلَّفًا مُنَظَّمًا، وَنَزَّلَهُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ مُنَجَّمًا، وَجَعَلَهُ بِالتَّحْمِيدِ مُفْتَتَحًا، وَبِالِاسْتِعَاذَةِ مُخْتَتَمًا، وَأَوْحَاهُ عَلَى قِسْمَيْنِ مُتَشَابِهًا وَمُحْكَمًا، وَفَصَّلَهُ سُورًا وَسَوَرَّهُ آيَاتٍ، وَمَيَّزَ بَيْنَهُنَّ بِفُصُولٍ وَغَايَاتٍ؛ وَمَا هِيَ إِلَّا صِفَاتُ مُبْتَدِئٍ مُبْتَدِعٍ، وَسِمَاتُ مُنْشِئٍ مُخْتَرِعٍ، فَسُبْحَان مَنِ اِسْتَأْثَرَ بِالْأَوَّلِيَّةِ وَالْقِدَمِ، وَوَسَمَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ بِالْحُدُوثِ عَنْ الْعَدَمِ؛ أَنْشَاهُ كِتَابًا سَاطِعًا تِبْيَانُهُ، قَاطِعًا بُرْهَانُهُ، وَحَيًّا نَاطِقًا بِبَيِّنَاتٍ وَحُجَجٍ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، مِفْتَاحًا لِلْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، مِصْدَاقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، مُعْجِزًا بَاقِيًا دُونَ كُلِّ مُعْجِزٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ زَمَانٍ، دَائِرًا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكُتُبِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ"(١).

الشـــرح:

يفتتح الزمخشريُّ مقدمة كتابه بتبيان منزلة القرآن الكريم، وبيان صفات إعجازه اللغوي، وكيف استطاع القرآنُ الكريمُ ببيانه أن يعجز فصحاء العرب عن مقارعة الوحي بالحُجة، والبينة اللازمة لإبطاله كما كانوا يبغونه، فلم يستطع البلغاء أو الخطباء مجاراة الوحي وبلاغته، بل إنه جعلهم بُكمًا أمام هذا الإعجاز اللغوي.

التحليل البلاغي:

افتتح الزمخشريُّ مقدِّمته بأسلوبٍ بليغٍ، حيثُ بدأها بالثناء على الله تعالى

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص١ – دار الكتاب العربي– بيروت– ط٣ –١٤٠٧ هـ.

بما هو أهلٌ له من الحمد الكامل، والحمدِ له ﷻ وحده، وقدْ عرَّفه بأل التي تستغرق كلَّ أنواع المحامد والمكارم، وتشمل كلَّ زمانٍ ومكانٍ، فالحمد كلُّ الحمدِ دائمٌ له سبحانه.

وصدَّرَ اسمَ الجلالة (الله)؛ لأنَّ الكتاب في تفسير القرآن الكريم، الذي لا بدَّ أنْ يتمثَّل جلال الألوهية أمام أعين القارئ والدارس والمفسِّر، حتى يستشعِرَ كُلٌّ جلالَ الألوهيَّةِ، وعظمة القائل جل جلاله.

ووصف اسم الجلالة بالموصول (الذي)؛ ليتوصل من خلاله إلى وصف المعرفة بجملة (أنزل القرآن) التي يدلّ من خلالها على موضوع كتابِهِ، وهو تفسير القرآن الكريم، الذي أخذ في وصفه بصفاتٍ تبين حاله، وهي قوله: (كَلَامًا مُؤَلَّفًا مُنَظَّمًا).

وعطف على جملة الصلة جملًا تاليةً تزيد في البيان والفائدة، وهي قوله: (وَنَزَّلَهُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ مُنَجَّمًا، وَجَعَلَهُ بِالتَّحْمِيدِ مُفْتَتَحًا، وَبِالِاسْتِعَاذَةِ مُخْتَتَمًا، وَأَوْحَاهُ عَلَى قِسْمَيْنِ مُتَشَابِهًا وَمُحْكَمًا، وَفَصَّلَهُ سُورًا وَسَوَرَّهُ آيَاتٍ، وَمَيَّزَ بَيْنَهُنَّ بِفُصُولٍ وَغَايَاتٍ)، واصلًا بينها بواو الوصل التي تربط الجمل بعضها ببعض، للتوسط بين الكمالين، فكلها متناسبةٌ ومشتركةٌ في وصف القرآن الكريم وبيان شأنه.

ثمَّ أكَّد بأسلوب القصر أنَّ هذا الإحكام والإبداع في إنزال القرآن الكريم وتأليف كلامه وتنظيمه، ونزوله منجمًا بحسب المصالح والمواقف، وجعله مُحكمًا ومتشابهًا، وتفصيله في سورٍ وآياتٍ بطريقةٍ بديعةٍ؛ كل هذا ما هو إلا من صفات الله المبتدئ المبدع المنشئ المخترع لا على مثالٍ سابقٍ، سبحانه وتعالى تجلَّى واستأثر بالقدم والأولية، وتنزه عن الحدوث.

ثم استأنف الزمخشريُّ في وصف القرآن الكريم قائلًا: (أَنْشَاهُ كِتَابًا سَاطِعًا تِبْيَانُهُ، قَاطِعًا بُرْهَانُهُ، وَحَيًّا نَاطِقًا بِبَيِّنَاتٍ وَحُجَجٍ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، مِفْتَاحًا لِلْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، مِصْدَاقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، مُعْجِزًا

بَاقِيًا دُونَ كُلِّ مُعْجِزٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ زَمَانٍ، دَائِرًا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكُتُبِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ).

أي أنشأ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم، فأحدثه شيئًا جديدًا لم يكن موجودًا سابقًا على غير مثال، بيَّن فيه لكلٍّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفةٍ الحلال والحرام والثواب والعقاب، وهذا التبيان ساطعٌ سطوع الشمس لا ينكر ضوءها أحدٌ ولا يجهلها منكر، ما دامت السماوات والأرض، قائم الحجة لا شك فيها كالسيف القاطع، حيًّا ناطقًا بما فيه من حججٍ وبيناتٍ، واضحةٍ ظاهرةٍ جليةٍ لا يغفلها إلا جاحدٌ، جعله الله ﷻ عربيًّا لا عوج فيه، ضمنه ما ينفع المسلم في دينه ودنياه، جاء مصدقًا لما نزل قبله من الكتب السماوية، معجزًا ببقائه على مر الزمان محفوظًا دون غيره من بين الكتب، فأجراه الله على كل لسان صالحًا لكل زمان ومكان.

والزمخشريُّ في وصفه هذا نوَّع في استخدام صيغ المشتقات، فعمد إلى اسم الفاعل مطابقًا به لمقتضى الحال، فالصفات المتجددة عبَّر عنها باسم الفاعل؛ للدلالة على قيام الفعل منه على وجه الحدوث لا الثبوت، كما في قوله: (قاطعًا- ساطعًا- ناطقًا- باقيًا- دائرًا).

إلى جانب اعتماده على علم البيان؛ حيث أثبت للتبيان السطوع على سبيل الاستعارة المكنية في تشبيه التبيان بالشمس في السطوع والظهور، وكذلك تشبيه حجة القرآن بالسيف القاطع؛ بل جسَّد القرآن فجعله حيًّا ناطقًا بما فيه من الحجج والبرهان؛ مبالغةً في ظهور هذه الحجج والبينات، بل جعل له يديْن يملك بهما الكتب السماوية السابقة.

وأكَّد كلَّ ما سبق باستخدامه للمحسنات المعنوية واللفظية التي تؤكد المعنى وتقويه، وتدلل أنَّ القرآن هو كتاب الله الذي أنزله على غير مثال، فجعله (منظمًا ومنجمًا، آياتٍ غاياتٍ)، وهو سجعٌ مرصعٌ أي توافقت فيه الألفاظ في الوزن والقافية، وجاء سجع الزمخشري هنا محمودًا، فلم يتكلفه بل كان طوع

خاطرٍ، وتكرر كثيرًا في المقدمة، و"السجع محمود إذا وقع سهلًا متيسرًا بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ورد ليصير وصلة إليه، فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليلَ من كرهه وعملنا بموجبه؛ لأنه إنما دلَّ على قبح ما يقع من السجع بتعمُّلٍ وتكلُّفٍ"(١).

وجانس بين (مبتدئ – مبتدع، سمات– صفات، ساطعًا – قاطعا)، والجناس في هذه الأمثلة جناس ناقص قصد إليه الزمخشري؛ بغرض التأثير في السمع وجذب انتباهه إلى ما يقول.

وقد عمد إلى الازدواج الذي يحدث توازنا موسيقيا في الكلام مؤكدا استخدام طرق الإبانة عند العرب، فيقول: "وَمَا هِيَ إِلَّا صِفَاتُ مُبْتَدِئٍ مُبْتَدِعٍ، وَسِمَاتُ مُنْشِئٍ مُخْتَرِعٍ"، يقول أبو هلال العسكري: "قد جاء في كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر، حتى جاء في كلام النبي ﷺ منه شيءٌ كثيرٌ؛ كقوله للأنصار يفضّلهم على من سواهم: « إِنَّكُمْ لتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ»(٢)، وقوله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ»(٣). وكقول أعرابي: "فلانٌ صحيحُ النسب، مستحكمُ السبب، من أي أقطاره أتيتَهُ أتى إليك بحسنِ مقالٍ، وكرمِ فعالٍ". وقال آخر من الأعراب: "اللهم اجعلْ خيرَ عملي ما ولِيَ أجلي".

وينبغي أيضا أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي،١٧١– دار الكتب العلمية– ط١، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٢م.

(٢) عزاه السيوطي و غيره للعسكري من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد بإسنادٍ حسنٍ.

على حرفٍ واحدٍ، فيقع التعادل والتوازن"[١].

كما عمد إلى التضاد في قوله: (مفتتحًا، مختتما- الأولية، القدم-الحدوث، العدم- متشابها، محكما- الدينية، الدنيوية)، وهو تضاد يؤكد المعنى ويوضحه، فالقرآن معجزٌ من أوله لآخره جمع بين الشيء وضده، ولن يكن كذلك إلا لأن مبدعه الخالق ﷻ.

وقد توَّج الزمخشري كلامه بالاقتباس من القرآن الكريم، فهو يتحدث عن هذا الكتاب العزيز، فضمَّن مقدمته من كلماته، واقتبس من جمله، وهذا واضح في قوله: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ) اقتبسه من قوله تعالى في بداية سورة الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف:١]، وقوله: (قسمين متشابها ومحكما) اقتبسها من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وكلمة تبيان في قوله: (ساطعا تبيانه) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: (قرآنا عربيا غير ذي عوج) مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقول الزمخشري: (مصداقا لما بين يديه) مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

ثم يقول الزمخشريُّ:

"أَفْحَمَ بِهِ مَنْ طُولِبَ بِمُعَارَضَتِهِ مِنْ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ، وَأَبْكَمَ بِهِ مَنْ تَحَدَّي بِهِ

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية – بيروت- ١٤١٩ هـ، ص.

مِـنْ مَصَـاقِعِ[١] الْخُطَبَـاءِ، فَلَـمْ يَتَصَـدَّ لِلْإِتْيَـانِ بِمَـا يُوَازِيـهُ أَوْ يُدَانِيـهُ وَاحِـدٌ مِـنْ فُصَحَائِهِمْ، وَلَمْ يَنْهَضْ لِمِقْدَارِ أَقْصَرَ مِنْ سُورَةٍ مِنْهُ نَاهِضٌ مِنْ بُلَغَائِهِمْ؛ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ حَصَى الْبَطْحَاءِ[٢]، وَأَوْفَرَ عَدَدًا مِنْ رِمَالِ الدَّهْنَاءْ، وَلَمْ يَنْبِضْ مِنْهُمْ عِرْقُ الْعَصَبِيَّةِ مَـعَ اِشْتِهَارِهِمْ بِـالْإِفْرَاطِ فِـي اَلْمُضَـادَّةِ وَالْمضَـارَّةِ، وَإِلْقَائِهِمُ الشَّرَاشِرِ عَلَـى الْمَعَـازَةِ (الْمُغَالَبَـةُ) وَالْمُعَـارَةُ (الْمُقَاتِلَـةَ)، وَلِقَائِهِمْ دُونَ اَلْمُنَاضِلَةِ عَنْ أَحْسَابِهِمْ الْخُطَـط، وَرُكُوبِهِمْ فِـي كُلِّ يَرُومُونَـهُ الشَّطَطَ (الْخُرُوجُ عَنْ الْحَدِّ)، إِنْ أَتَـاهُمْ أَحَدٌ بِمَفْخَـرَةٍ أَتَـوْهُ بِمَفَـاخِرَ، وَإِنْ رَمَـاهُمْ بِمَـآثِرِهِ رَمَـوْهُ بِمَـآثِرَ؛ وَقَـدْ جَـرَّدَ لَـهُمُ الْحُجَّـةَ أَوَّلًا، وَالسَّـيْفَ آخِـرًا، فَلَـمْ يُعَارِضُـوا إِلَّا السَّـيْفُ وَحْـدَهُ، عَلَـى أَنَّ السَّـيْفَ الْقَاضِـبَ (شَـدِيدَ اَلْقِطَـعِ) مِخْرَاقٌ (نَافِذٌ فِـي الْأُمُورِ) لَاعِبٌ إِنْ لَمْ تَمْضِ الْحُجَّـةُ حَدَّهُ؛ فَمَـا أَعْرَضُوا عَـنْ مُعَارَضَـةِ الْحُجَّـةِ إِلَّا لِعِلْمِهِـمْ أَنَّ الْبَحْـرَ قَـدْ زَخَـرَ فَطَـمَّ (عَـلَا وَارْتَفَـعَ) عَلَـى الْكَوَاكِبِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ فَطَمَسَتْ نُورَ الْكَوَاكِبِ"[٣].

بعد أن وصف الزمخشري القرآن بالصفات السابقة، أثبت إعجازه ببلاغته، وعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، أو أقل من مثله، فقد أفحم العرب الخُلَّص وأسكتهم بالحجة الواضحة، وأبكم خطباءهم الفصحاء البلغاء، واستخدم التعريف بالموصولية في قوله: (مَنْ طُولِبَ بِمُعَارَضَتِهِ مِنْ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ، وَأَبْكَمَ بِهِ مَنْ تَحَدَّي بِهِ مِنْ مَصَاقِعِ الْخُطَبَاءِ) للتقليل من شأنهم وإظهار عجزهم، فمهما وصلوا من الفصاحة والبلاغة ومع كثرة ما أوتوا من علوم العربية وفنونها، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، وفي هذا القول مبالغةٌ في عجزهم.

---

(١) المصاقع جمع المصقع، وهو البليغ الذي يتفنن في مذاهب القول، ومنه خطيب مصقع، لسان العرب لابن منظور، مادة صقع.

(٢) البطحاء: سهل أرض منبسطة فسيحة الأرجاء، يسيل فيها الماء تاركا فيها الرمل وصغار الحصى، والبطحاء مكان بين مكة ومنى. لسان العرب لابن منظور، مادة بطح.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص١.

والزمخشري في إثبات تحدي القرآن لهم وعجزهم عن الإتيان أثبت كلَّ مراحل التحدي في قوله: (فَلَمْ يَتَصَدَّ لِلْإِتْيَانِ بِمَا يُوَازِيهُ أَوْ يُدَانِيهُ وَاحِدٌ مِنْ فُصَحَائِهِمْ، وَلَمْ يَنْهَضْ لِمِقْدَارِ أَقْصَرَ مِنْ سُورَةٍ مِنْهُ نَاهِضٌ مِنْ بُلَغَائِهِمْ) حيث طولبوا بالإتيان بمثله، عبَّر عنه بما يوازيه، فلم يستطيعوا، بل كفروا وأنكروا وقالوا إنَّهُ مفترى، فطولبوا بالإتيان بعشر سور مثله فلم يستطيعوا، وعبر عنه بما يدانيه، ثم طولبوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله فعجزوا عجزًا تامًّا، وآيات التحدي الواردة في القرآن تؤكد ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤]، فما كان منهم غير الكذب طُلب منهم أن يأتوا بعشر سور فقط في قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، فعجزوا عن ذلك فسهل التحدي وطلب منهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ فقط، وليستعينوا بمن أحبوا من الأنصار والأعوان من الشعراء والأدباء والبلغاء والعلماء، قال ﷻ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣]، فما كان منهم إلا العجز فأوضح لهم المولى ﷻ أنه لن يتأتى لهم أبدًا الإتيان بشيءٍ منه، وإن كان منزلًا بلغاتهم وهم الفصحاء البلغاء، قال تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويتعجب الزمخشريُّ من عجزهم، فيقول على سبيل المفارقة، إنه لم ينهض واحدٌ فقط من هؤلاء الفصحاء لهذا التحدي رغم كثرة عددهم التي تجاوزت عددَ حصى البطحاء ورمال الدهناء التي لا يستطيع أحدٌ حصرَها ولا عدَّها مبالغةً في

كثرتهم.

ولم يغفل الزمخشري الصفات النفسية لهم في هذا التحدي، فلم يقتصر فقط على بلاغتهم وفصاحتهم، بل تحدث عن عصبيتهم واعتزازهم بنفسهم حال تحداهم أحد، ويتعجب من أمرهم في عجزهم هذا ولم يتحرك منهم ساكن، حال كونهم هم الذين اشتهروا بتجاوز الحد في إلحاق الضرر بمن عاداهم، معتمدًا في إثبات قوله على أسلوب الشرط، (إِنْ أَتَاهُمْ أَحَدٌ بِمَفْخَرَةٍ أَتَوْهُ بِمَفَاخِرَ، وَإِنْ رَمَاهُمْ بِمَآثِرِهِ رَمَوْهُ بِمَآثِرَ)، فهم أهل المفاخر والمآثر، ولما عجزوا عن التحدي، جاهروا بالإنكار، وبدلًا من التسليم بأنه كتاب الله، زادوا في إنكارهم، فلم يقدروا على التحدي والمعارضة بالحجة والبرهان، ولكن أخذتهم عصبية الجاهلية الأولى، (فَلَمْ يُعَارِضُوا إِلَّا السَّيْفُ وَحْدَهُ)، عبر بالقصر بطريق النفي والاستثناء، فالنفي للمقدرة على التحدي والمعارضة والإثبات لضعفهم وتكبرهم على غير حق، فلم يذعنوا بالإيمان، بل جاهروا بالكفر والطغيان، على جهلٍ منهم، مؤكدا ذلك بقوله: (عَلَى أَنَّ السَّيْفَ الْقَاضِبَ مِخْرَاقٌ لَاعِبٌ)، (أَنَّ) من أدوات التوكيد، وهي هنا جاءت لتأكيد الفكرة، بل وقام الزمخشري بتكرارها عدة مرات، لعله قد شرع في تأكيد فكرته قبل إنكار المخاطب للفكرة مسبقًا، فإنكار المخاطب للحكم حال يقتضي تأكيده، والتأكيد مقتضى الحال(١).

وفي أسلوب القصر هذا نوعٌ من الإيهام، أوضحه بأسلوب قصرٍ آخر طريقه أيضًا النفي والاستثناء في قوله: (فَمَا أَعْرَضُوا عَنْ مُعَارَضَةِ الْحُجَّةِ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْبَحْرَ قَدْ زَخَرَ فَطَمَّ عَلَى الْكَوَاكِبِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ فَطَمَسَتْ نُورَ الْكَوَاكِبِ)، فنفى مقدرتهم على المعارضة، وأثبت إعجاز القرآن الكريم الذي

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ت: محمد عبد المنعم خفاجي:٤١/١– دار الجيل– بيروت، ط٣.

كانت بلاغته كالبحر الزاخر الذي زاد وفاض حتى أطفأ نور الكواكب، على سبيل الاستعارة التصريحية في تشبيه القرآن الكريم بالبحر، وبلغاء العرب بالكواكب، وفي القول مبالغةٌ نوعها إغراقٌ، فالوصف المدعَّى ممكنٌ عقلًا غيرُ ممكنٍ عادةً، فماء البحر وإن زاد لا يصل الكواكب.

واستعارة أخرى في تشبيه القرآن الكريم بالشمس في سطوع حجته وقوتها والمبالغة هنا مبالغةٌ ممكنةٌ عقلا وعادة، فالشمس إذا أشرقت لم يبق نورٌ إلى جانبها.

والزمخشري هنا اتبع أسلوب العرب في الإبانة، فنجد النابغة الذبياني في مدحه النعمان بن المنذر يقول:

كأنك شمس والملوك كواكب ∴ إذا طلعت لم يبدُ منهن كواكب

والزمخشريُّ لعلمه بالعربية وتفقُّهه فيها طوَّع كلَّ كلمةٍ لتخدم غرضه، وهو إعجاز القرآن الكريم الذي تحدَّى العرب، مستخدما في ذلك صيغة الفعل الماضي في أفعال التحدي في قوله: (أفحم به–أبكم به–تحدى–أعرضوا).

في حين اعتماده على صيغة المضارعة المسبوقة بـ(لم) الجازمة التي تحول الفعل من المضارع إلى الماضي، في الأفعال التي تدل على عجزهم على هذا التحدي مثل: (لم يتصد– لم ينهض– لم ينبض– لم يعارضوا)، فإذا كان فعل المضارع يدلُّ على الاستمرارية، فصرفهم بهذا الجزم عن أي محاولةٍ بعد ذلك منهم أو من غيرهم ممن سيأتي بعدهم على مرِّ العصور.

بالإضافة إلى ذلك فقد حشد الزمخشري للتأكيد على غرضه كثيرًا من المحسنات البديعية المعنوية واللفظية، كالجناس في (المضادة والمضارة، المعازة والمعارة، الخطط والشطط، فطم وفطمست)، والطباق كما في قوله: (يوازيه ويدانيه)، (الحجة أولا، والسيف آخرا)، وكذلك المبالغة؛ مما كان له أثرٌ كبيرٌ في التأكيد على المعنى وتوضيحه.

وقد أسهب الزمخشري في افتتاحية مقدمته، في حديثه عن القرآن الكريم، وأنه منزلٌ من الله ﷻ، وإعجازه الكامن في تحدي العرب بكل ما أوتوا من فصاحة وبلاغة على أن يأتوا بأقصر سورة من سوره، ولعل هذا راجع إلى الغرض الذي من أجله ألَّف الزمخشريُّ كشافه، الذي هو بيان إعجاز القرآن الكريم.

ثم يقول الزمخشريُّ:

"وَالصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ] عَلَى خَيْرِ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ حَبِيبِ اللَّهْ أَبِي الْقَاسِمِ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، ذِي اللِّوَاءِ الْمَرْفُوعِ فِي بَنِي لُؤَيّ، وَذِي الْفَرْعِ الْمنِيف فِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ، الْمُثَبَّتِ بِالْعِصْمَةِ، الْمُؤَيَّدَ بِالْحِكْمَةِ، الشَّادِخِ[١] الْغُرَّةِ، الْوَاضِحِ التَّحْجِيلِ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْمَكْتُوب فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ، وَخُلَفَائِهِ مِن اَلْأَخْتَانِ[٢] وَالْأَصْهَارِ[٣]، وَعَلَى جَمِيعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"[٤].

بعد أن ابتدأ الزمخشريُّ مقدمته بالحمد لله والإذعان له بالوحدانية، ثنَّاها بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وقد عدل الزمخشري عن قوله رسول الله، أو نبي الله وقال خير من أوحي إليه، معرفا له بالموصولية؛ تعظيمًا وتكريمًا للوحي ولمن أنزل عليه، مؤكدًا حديثه عن القرآن الكريم مشيرًا إليه بقوله: "أُوحِيَ إِلَيْهِ"، تأكيدًا لإنزال القرآن من الله ﷻ على نبيه، فكانت معجزته الباقية، ثم كنَّى

(١) الشدخ غرة في وجه الفرس من الناصية إلى الأنف، لسان العرب: أنف.

(٢) أختان جمع ختن، وهو كل من كان من قبل المرأة كأبيها، وأخيها، وزوج البنت، وزوج الأخت، لسان العرب لابن منظور، مادة ختن.

(٣) الصهر القريب بالزواج، وهم أهل الزوجة، كالأبوين، والأخوين، والأخوال، والأعمام، والخالات.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص٢ .

عنه بكونه حبيب الله مثبتًا له أنه بشرٌ بذكر كنيته أبي القاسم، فالقرآن لم ينزل على ملك، كما كانوا يدعون.

ثم ذكر نسبه ﷺ من جهة والده رافعًا إياه لجده الثامن وهو لؤي، والثالث وهو قصي، فجاء قوله: "ذِي اللِّوَاءِ الْمَرْفُوعِ فِي بَنِي لُؤَيّ، وَذِي الْقَرْعِ الْمنِيف فِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ"، كناية عن مكانة النبي ﷺ في أهله وعظم مكانتهم في قومهم.

وجاء قوله: (الشَّادِخِ الْغُرَّةِ، الْوَاضِحِ التَّحْجِيلِ) كناية عن أنه معروف المنزلة، مشهور في قومه، معروف لهم بالصفات الحسان، وليس معروفًا في أهله فقط، بل هو النبي الذي بشرت به الكتب السماوية من قبله، فجاء ذكره في التوراة والإنجيل.

وبعد أن دعا الزمخشريُّ بالصلاة والسلام على رسول الله، عطف عليها الصلاة والسلام على (آلِهِ الْأَطْهَارِ، وَخُلَفَائِهِ مِن اَلْأَخْتَانِ وَالْأَصْهَارِ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)، وقد جمع الزمخشري في قوله هذا كلَّ المسلمين الأوائل بواسطة حسن التقسيم، فذكر الأهل في قوله: "آله"، ثم الخلفاء الأربعة وهم الصحابة –رضوان الله عليهم– سواء منهم من كان ختنًا أو صهرًا، ثم جمع الأمة كلها في المهاجرين والأنصار الذين ءامنوا به واتبعوه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل عليه.

وعمل الزمخشري على نفسية القارئ والمتلقي لكلامه، فطرَّز كلامه بعلم البديع، فركن إلى الجناس بين (الأطهار والأصهار)، والازدواج في قوله: (المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة).

ثم أتبع الزمخشريُّ بقوله: "اِعْلَمْ أَنَّ مَتْنَ كُلِّ عِلْمٍ وَعَمُودَ كُلِّ صِنَاعَةٍ طَبَقَاتُ الْعُلَمَاءِ فِيهِ مُتَدَانِيَةٌ، وَأَقْدَامُ الصُّنَّاعِ فِيهِ مُتَقَارِبَةٌ أَوْ مُتَسَاوِيَةٌ، إِنْ سَبَقَ الْعَالَمُ الْعَالِمَ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَّا بِخُطًى يَسِيرَةٍ، أَوْ تَقَدّم اَلصَّانِعُ اَلصَّانِعَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ إِلَّا

بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ، وَإِنَّمَا اَلَّذِي تَبَايَنَتْ فِيهِ اَلرُّتَبُ، وَتَحَاكَتْ فِيهِ اَلرِّكَبُ، وَوَقَعَ فِيهِ اَلِاسْتِبَاقُ وَالتَّنَاضَلُ، وَعَظُمَ فِيهِ التَّفَاوُتُ وَالتَّفَاضُلُ، حَتَّى اِنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى أَمَدٍ مِنْ اَلْوَهْمِ مُتَبَاعِدٍ، وَتَرَقَّى إِلَى أَنْ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ – مَا فِي الْعُلُومِ وَالصِّنَاعَاتِ مِنْ مَحَاسِنِ النُّكَتِ وَالْفِقَرِ، وَمِنْ لَطَائِفِ مَعَانٍ يَدِقُّ فِيهَا مَبَاحِثُ لِلْفِكرِ، وَمِنْ غَوَامِضِ أَسْرَارٍ مُحْتَجَبَةٍ وَرَاءَ أَسْتَارٍ، لَا يَكْشِفُ عَنْهَا مِنْ اَلْخَاصَّةِ إِلَّا أَوْحَدُهُمْ وَأَخَصُّهُمْ، وَإِلَّا وَاسِطَتُهُمْ وَفَصُّهُمْ وَعَامَّتُهُمْ، عَمَاهُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا بِأَحْدَاقِهِمْ، عَنَاهُ فِي يَدِ التَّقْلِيدِ لَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِجَزِّ نَوَاصِيهِمْ وَإِطْلَاقِهِمْ".

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، ينتقل الزمخشري للحديث عن غرضه من الكتاب، ولفت الانتباه، ليعلم القارئ أهمية ما سيقال، وقد عمد إلى استخدام فعل الأمر في قوله: "اعلم"، وهو أسلوب إنشائي مجازي، أراد منه التنبيه على أمر عظيم، أكده باسمية الجملة المسبوقة بـ"أن" التي هي للتأكيد لكي لا يدع لأحد أن يشكك في قوله، فما يقوله كأنه قاعدة مسلم بها وهو كذلك، فيقول: (اِعْلَمْ أَنَّ مَتْنَ كُلِّ عِلْمٍ وَعَمُودَ كُلِّ صِنَاعَةٍ طَبَقَاتُ الْعُلَمَاءِ فِيهِ مُتَدَانِيَةٌ، وَأَقْدَامُ الصُّنَّاعِ فِيهِ مُتَقَارِبَةٌ أَوْ مُتَسَاوِيَةٌ، إِنْ سَبَقَ الْعَالَمُ الْعَالِمَ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَّا بِخُطًى يَسِيرَةٍ، أَوْ تَقَدَّم اَلصَّانِعُ اَلصَّانِعَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ إِلَّا بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ).

فمتن كل علم لا مزية فيه لعالم على غيره، فالكل فيه متقارب متساوٍ كتساوي كل الصناعات في أساسياتها لا فضل لصانع على غيره فيها، والمتن هو "ما جرى إطلاقه عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون، تكثف في رسائل صغيرة غالبا، وهي تخلو في العادة من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل، كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة، وذلك لضيق المقام عن استيعاب هذا ونحوه؛ لذلك عُدَّت المتون الأقل ألفاظاً الأحسن في ذاتها والأكثر قبولاً عند

الدارسين"[١]، فأراد الزمخشري أن أصول العلم وقواعده لا فضل ولا أسبقية فيها لعالم على عالم، وقواعد كل صنعة لا فرق فيها بين صانع وصانع مؤكدًا ما يقول باستخدام كل التي تفيد الشمولية، والتكرار الوارد في قوله (العالم العالم)، و(الصانع الصانع) فكرر كلا من العالم والصانع ليؤكد على التساوي والتقارب بينهما فلا فرق بينهما، فعدل عن التعبير بلفظ آخر كأن يقول إن سبق العالم غيره والصانع صانع آخر، لأن أي لفظ سيدل على المغايرة والاختلاف وهو ما لا يتفق مع غرض الزمخشري، وزيادة في التأكيد يعمد إلى أسلوب القصر ويكرره، فيقول: (إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة)، استخدم فيه طريق النفي والاستثناء تأكيدا على التساوي والتقارب في المكانة والمنزلة، لذا استخدم إن في قوله إن سبق وعطف تقدم، أي أو إن تقدم، وهي التي تفيد الشك في وقوع الفعل، وناسب الزمخشري بين الألفاظ المستخدمة في ذلك فكان مراعاة النظير بين: (متقاربة–متدانية–متساوية).

وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد – ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم.

(١) الدليل إلى المتون العلمية، عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، ص٤٠، دار الصميعي، ٢٠٠٨م.

بعد التأكيد بواسطة أسلوب القصر على تقارب وتداني مكانة العلماء في متون العلم، يعمد الزمخشري مرة أخرى إلى أسلوب القصر بعطفه على سابقه مستخدمًا القصر بطريق إنما، تأكيدًا على أن الفضل والتفاوت في رتب العلماء هو استخراج ما في هذه العلوم من أسرار وأفكار كامنة داخل النص، ومعان دقيقة، وأسرار محتجبة وراء أستار، هنا يصح السبق والتقدم، وتتفاوت مكانة العلماء.

حتى انتهى الأمر إلى أمدٍ من الوهم متباعدٍ، كناية عن عدم التداني والتقارب في المنزلة، ولشدة البعد في المكانة يتساوى العالم بألف من غيره مما لا يعملون الفكر، ولا يستخرجون كوامن وأسرار هذه العلوم وكشف ما غمض منها، والتي زاد غموضها جعلها مختبئة محتجبة وراء أستار، على سبيل الاستعارة التصريحية في قوله: (ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار)، في تشبيه الأسرار بامرأة اتخذت من الأستار حجابًا لها لا تتكشف إلا لخاصتها فقط، فكذلك هذه الأسرار، وتلك المحاسن واللطائف لا ينبري لها إلا الخاصة من العلماء لاستخراجها مؤكدًا ذلك بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء في قوله: (لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم) حتى جعل الخاصة لا يكشف عنها إلا أخصهم كتلك المرأة المحتجبة لا تتكشف عن حجابها إلا لأخص الخاصة، أما العامة فهم عماة عن جمالها ومفاتنها، عبر عن ذلك بقوله: (وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة[١] في يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم)، كناية عن قصرهم وعدم تمكنهم من اكتشاف ما دق ولطف، وما احتجب واستتر لانشغالهم بالتقليد فقط، يسيرون منقادين لا فضل ولا مزية لهم، بل جعلهم أسرى التقليد مجسدا إياه في هيئة

(١) جمع عان، وهو الذليل الأسير، لسان العرب لابن منظور.

إنسان، أثبت له يد، بواسطتها يملك زمام هؤلاء الأسرى يصرف فكرهم كيفما يشاء، ولا يسمح لهم بالتحرر منه، معبرا عن ذلك بقوله لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم.

وقد جانس الزمخشري بين ألفاظ هذه الفقرة، لتخرج لنا في هيئتها التي عليها تجذب الأسماع فتتقد الأذهان فكان الجناس بين كل من: (يسيرة وقصيرة، الرتب والركب، التناضل والتفاضل، الفقر والفكر).

ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح[١]، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها – علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه[٢] وإجالة[٣] النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب "نظم القرآن" فالفقيه وإن برز علم الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية[٤] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه– لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة

(١) قريحة الإنسان: طبيعته التي جبل عليها، والقريحة ملكة يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي، المعجم الوسيط .

(٢) التعاطي: التناول مرة بعد مرة، وهو الاشتغال بالشيء والخوض فيه.

(٣) يجيل النظر فيه: يقلب النظر في من جميع جوانب، ويمعن النظر .

(٤) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي (ت:٨٤هـ /٧٠٣م)، أحد الفصحاء البلغاء كان يضرب به المثل فيقال أبلغ من ابن القرية، ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق محب الدين أبي سعيد، عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، ١٩٩٧م. .

في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، ورد عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، دراكا للمحة وإن لطف شأنها، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزا جاسيا، ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه.

بعد أن تحدث الزمخشري عن العلوم عامة وفضل العلماء ورتبهم المرتبط بالتكشف عن ما غمض واحتجب فيها، انتقل إلى الحديث عن العلم الذي هو بصدده، وهو علم التفسير، فيقول: (ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها – علم التفسير)، بادئا الحديث عنه العطف ب ثم، التي تفيد التراخي مدللا على أنه بعد أن عرفت في أي شيء تتفاوت رتب العلماء، وهذا يحتاج إلى تمهل وتمعن؛ فإذا حصل عندك هذا العلم واطمأنت نفسك إليه، اعلم أن أفضل هذه العلوم هو علم التفسير الذي أخذ يتحدث عنه بصيغة أفعل التفضيل تأكيدا لمنزلته وشرفه ومكانته من بين العلوم، تلك المكانة التي تحفظ له ألا يتقدم للغور فيه إلا خاصة الخاصة، فيقول مستخدما أسلوب التأكيد ب "إن" علم التفسير هو ذلك الذي به تمتلئ تلك الملكة القادرة على الإبداع والابتكار، وهو أيضا الذي يبهر العقول بما فيه من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، والزمخشري استخدم هنا أسلوب التشويق، فلم يقل ثم اعلم أن علم التفسير هو العلم الذي يملأ القرائح، بل عدل عن ذلك إلى التعبير بأسلوب التشويق والتشويف إلى معرفة هذا العلم، وهذا يتناسب مع تلك اللطائف التي دقت

والأسرار التي احتجبت فلا تتكشف إلا بعد طول تأمل ونظر.

ولعظم هذا العلم ومكانته بين سائر العلوم أخذ يعرفه ويتحدث عنه بالموصولية: (التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب "نظم القرآن" فالفقيه وإن برز علم الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه- لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله)، فتفسير كتاب الله لا ينبري له ولا يتصدى للكتابة فيه والاشتغال به صاحب كل علم وإن كان له قصب السبق في هذا العلم، حتى وإن كان أعلم أقرانه في الفقه، وأعلم أهل زمانه في علم الكلام، وإن تجاوز ابن القرية في الحفظ، وأفضل من الحسن البصري في الوعظ، وسبق سيبويه في النحو، واللغوي وإن بلغ به تمكنه من اللغة بأن صارت كالعلكة في فمه، كناية عن شدة التمكن، كل هؤلاء لن يتأتى لهم الخوض في التفسير والاشتغال به وإمعان النظر فيه.

ثم استثنى من هؤلاء بواسطة القصر الذي طريقه النفي والاستثناء رجل واحد، وهو: (لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة،

وبعثته على تتبع مظانهما[١] همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله)، فخص من لديه معرفة بالمعاني والبيان بمقدرته على التفسير دون ما سواهما من العلوم، شرط أن لا تكون معرفته بهما معرفة قصيرة سطحية، بل أكد على التمهل في دراستهما بكثرة التردد عليهما وقصدهما بالدراسة أوقاتا متعددة، وكان لديه صبر في البحث عنهما أزمنة، على الكثرة، بل الأكثر من ذلك، أن يكون هدفه من دراستهما وتتبع مواضعهما، أن يكون له همة من نفسه للتعرف على لطائف حجة الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وحرص منه على توضيح إعجاز القرآن الكريم. والزمخشري ذكر هنا علم المعاني وعلم البيان وأغفل ذكر علم البديع، مع تزاحم المحسنات البديعية في مقدمته اللفظية منها والمعنوية، ولم يكن هذا إغفالا لقيمة هذا العلم ولا كما قيل أنه: "لم يكن يعد البديع علما مستقلا من علوم البلاغة إنما كان يعده ذيلا متمما لها. وتتمة تحمل عليها، وكانت هذه النظرة إلى البديع سببا في أن لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية، وأن لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين، وإذا ألم بها مسها في خفة"[٢]، أو أن "البديع هو علم تابع للمعاني والبيان، وليس علما قائما بذاته"[٣]، وإنما عدم الذكر هنا راجع إلى ما قال شيخي د/ محمد أبو موسى: "الزمخشري حصر بلاغة القرآن في علمين هما المعاني والبيان، فذلك حق، وليس فيه ابعاد للصنعة البديعية، لأن علمي المعاني والبيان لم يتحددا في بلاغة الكشاف بالصورة التي يتصورها المتأخرون حين حصروا

(١) مظنة الشيء: موضعه ومألفه الذي يظن كونه فيه، والمظان: المراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته، لسان العرب: ظنن.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف، ص٢٦٥، دار المعارف .

(٣) الزمخشري، د/ أحمد الحوفي، دار الفكر العربي.

كلا منها في أبواب معينة"[١].

هذا فيما يخص عدم ذكره لعلم البديع، أم تخصيص علم المعاني وعلم البيان بالذكر، فنجد شيخي فصل القول في ذلك، "ان الزمخشري لم يذكر مصطلح علمي المعاني والبيان في مقدمة تفسير الكشاف فحسب، كما يوهم وقوف كثير من الباحثين عند عبارته المشهورة. وانما ذكر هذا المصطلح قبل تأليف الكشاف وكرر ذكره في كتابه الصغير أعجب العجب وذكره في كتاب المفصل وكرره كثيرا في ديوان شعره ومدح الكثير بتبحرهم في علمي المعاني والبيان. وكل هذه الإشارات لا تكشف لنا مراده بهذين العلمين كشفا محددا وإن كانت تدلنا على أن هذا الاصطلاح كان قارا في نفسه وواضحا في إدراكه، وأنه لم يقع في مقدمة التفسير عفوا وانسياقا وراء الكلام"[٢].

نلحظ من كلام شيخنا أن الزمخشري كان قاصدًا إلى ذكر هذين العلمين في المقدمة، وأنَّ بهما تقع المزية بين العلماء، فلن يتأتى لأحد أن يتناول كتاب الله بالشرح والتفسير ' إلا بعد تمكنه من هذين العلمين.

وإن كانت الفنون المدرجة تحت هذين العلمين لم تكن واضحة عند الزمخشري بل متداخلة فأدخل على علم البيان بما ليس فيه، وأطلق علم المعاني على فنون أساسها البيان، لأن هذه العلوم في عصر الزمخشري لم تكن قسمت هذا التقسيم الوارد عن المتأخرين، ونجدد شيخنا قد ذكر لنا هذا التداخل في كتابه البلاغة القرآنية فيقول: "لا نستطيع أن نقول أن الزمخشري قد ميز مباحث هذه العلوم، وغاية ما يمكن أن يقال بعد تتبع ومقارنة: أن إطلاق علم المعاني على مباحث البيان قليل، وإطلاق علم المعاني على مباحثه في مصطلح المتأخرين

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد أبو موسى٥٧٣.

(٢) السابق نفسه، ص٢٤٨، ٢٤٩. .

كثيرا، وان إطلاق علم البيان على مباحث علم المعاني قليل بالنسبة إلى إطلاقه على مباحث علم البيان"[١].

ولما كانت الدراسة تتصل بالبلاغة اتصالا وثيقا، رأيت أنه لابد من الوقوف على تخصيص الزمخشري لعلمي المعاني والبيان دون غيرهما من العلوم، وذكر آراء علمائنا وترجيح رأي الشيخ أبي موسى في دراسته لكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه.

وبعد أن أوقفنا الزمخشري على أهمية علم المعاني وعلم البيان لمتناول كتاب الله بالشرح والتفسير، أخذ يضع له شروطا متعددة لابد من تحصيلها لمن يقدم لتفسير كتاب الله عز وجل فيقول: "بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، ورد عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، دراكا للمحة وإن لطف شأنها، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزا[٢] جاسيا[٣]، ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا[٤] غير ريض[٥] بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه".

---

(١) السابق نفسه، ص٢٥٤.

(٢) الكز هو البخيل، وكز الشيء ضيقه، لسان العرب لابن منظور.

(٣) جسا: صلب وغلظ، لسان العرب.

(٤) من ارتاض، ومنه ارتاضت القوافي للشاعر: انقادت ولم تعد صعبة عليه، لسان العرب لابن منظور.

(٥) الريض من الدواب: حديث العهد بالرياضة، فهو لم يذل بعض لصاحبه، وأمر ريض: لم يحكم تدبيره، لسان العرب لابن منظور.

ومن يتأملها يجدها " تشبه لحد بعيد جدا شروط النظريات الأدبية الحديثة للناقد الأدبي، وهي:

١. المعرفة بعلم الإعراب والمعاني والبيان في لغة النص موضوع الدراسة والمطلوب تفسيرها وتأويلها.

٢. المعرفة الأسلوبية بأساليب الكلام والتأليف، كيف يرتب وينظم، ويرصف الكلام نظما كان أو نثرا.....

٣. رهافة الحس واسترسال الطبيعة واشتعال القريحة ويقظة النفس وهذه هي الصفات النفسية والطبيعية للأديب والناقد الناجح، فلا يمكن مزاولة الكتابة الأدبية أو النقد من دونها"(١).

وقد أبدع الزمخشري في التعبير عن هذه الشروط وصياغتها في أسلوب بديع، يتناسب مع الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ببلاغته؛ فالمفسر لابد أن يتخلق بخلق القرآن الكريم فلا يكون فظا غليظا، ولا جديدا في هذا العلم غير متمكن منه مداوم القراءة والحفظ عالما بالخفايا مدركها حتى يتأتى له الكشف عن أستارها. فهنا نلحظ أن الزمخشري أصبح مقرا في نفسه "أن إعجاز القرآن الكريم لم يعد يدرك بالفطرة، وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية وإحاطة بغريبها، ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها، لتنمو لدى من يريد التصدي لمعرفة الإعجاز ملكة تمكنه من إدراك هذه الناحية في القرآن الكريم، فانتقل الإعجاز من مرحلة التذوق الفطري إلى مرحلة التذوق العلمي الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية، تؤهل صاحبها لإدراك ناحية

(١) التمثيل والتخييل كآليات للتأويل عند الزمخشري في تفسيره الكشاف– دراسة للمنهج التأويلي، صهيب أمين نادر، ص٣٠٣، ٣٠٤، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد ١٩، العدد ٥.

الإعجاز في القرآن العظيم"[١].

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى منصف يضم أطرافا من ذلك، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملي عليهم "الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي، أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاما مبسوطا، كثير السؤال والجواب، طويل الذيول [والأذناب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها –وقليل ما هم– عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حراصا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس –أدام الله مجده– وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم

(١) التطبيقات البلاغية في ضوء الدرس الإعجازي: تفسير الكشاف للزمخشري أنموذجا، د/ محمد مقدم، ص٩٢٣، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد ١٠، عدد ٣، السنة ٢٠٢١م.

مناقبهم، أعطش الناس كبدا، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه– في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد[١]، والفحص عن السرائر)[٢].

بعد أن فرغ الزمخشري من وضع الشروط الواجب توافرها في كل من يتصدى لكتاب الله ويتناوله بالشرح والتفسير، ينتقل إلى الحديث عن سبب تأليفه لهذا الكتاب بين أيدينا، وهو (ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى منصف يضم أطرافا من ذلك، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملي عليهم "الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد)، أنه جاء استجابة لطلب من إخوانه في الدين –يقصد المعتزلة– وصفهم بأنهم من الأفاضل، يجمعون بين العلم باللغة العربية والدين، وهذا تأكيد منه على أنهم ممن يقبل حكمهم فيه، وفي القول كناية عن تمكن الزمخشري وعلمه وشهرته بين قومه في قدرته على التفسير والتحليل، وتمكنه هذا جعلهم يعاودونه مرارا وتكرار، تدل عليه كلمة كلما رجعوا إلي، فكان لهم المرجع في كل أمر دق عليهم

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص٣ .

(٢) السابق: المقدمة ص٤ .

وغمض.

ودلت لفظة أفاضوا عن شدة إعجابهم واستحسانهم لما يقوله الزمخشري في كشفه عما غمض واحتجب من حقائق، وكان إعجابهم واستحسانهم سببا في تشوفهم إلى وجود كتاب مصنف يجمع ما يمليه عليهم من هذا التفاسير، فاستطيروا شوقا لذلك، وأسند إليهم الزمخشري اختيار عنوان الكتاب فعنوانه بـ "الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، فاستعفى، أي أن جعل هذا التفسير واجبا عليه فطلب من مكلفيه بهذا الأمر أن يسقط عنه تكليفه، ولما استعفى ما كان منهم إلا تكرار الطلب مرات عديدة دل على ذلك المراجعة، واستشفعوا بالعلماء في عصرهم، أي طلبوا منهم أن يتشفعوا لهم عند الزمخشري ليلبي طلبهم، وعنوان الكشاف يدل على براعة الزمخشري في "الالتفاف حول مشكلة التفسير والتأويل ومعانيهما وخصوصياتهما ثم الجمع بينهما الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل تحيلنا إلى معاني التفسير وآلياته ومراميه فالغموض والكشف مفاهيم متعلقة بالتفسير، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل واضح في إحالة القارئ إلى مجال التأويل مما يجعلنا أمام تفسير معقد يجمع في ثناياه مزايا كلا المفهومين أو العمليتين"[١]، فالعنوان هنا _عنوان الكشاف_ ينبئ عن منهجه الذي يتبعه في تفسيره، والذي يؤكده من خلال مقدمته فما من علم يمكنه من الوقوف على تلك الأسرار واستنباطها وكشف أغوارها إلا علوم البلاغة التي هي وثيقة الصلة بإعجاز القرآن الكريم وفصاحته.

يعلل الزمخشري رفضه طلب جماعته أن يملي عليهم مسائل في التفسير، بالرغم من علمه أن مطلبهم هذا يجب الإذعان به وتحقيقه؛ فيقول: والذي حداني

(١) التمثيل والتخييل كآليات للتأويل عند الزمخشري في تفسيره الكشاف– دراسة للمنهج التأويلي، د/ صهيب أمين نادر، مجلة جامعة تكريت للعلوم ص٣٠٢، العدد(٥)، المجلد (١٩).

على الاستعفاء على علمي، أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاما مبسوطا، كثير السؤال والجواب، طويل الذيول [والأذناب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه"

يعبر الزمخشري عن السبب الذي حثه على الاستعفاء من الاستجابة لطلبهم بالموصولية، تأكيدا على عظم هذا الأمر في نفسه، مؤكدا ذلك ب أن، وجملة موصولية أخرى في قوله: ما الإجابة إليه علي واجبة، مشبها إياه بالصوم والصلاة والعبادات التي هي فرض عين لا تسقط إن أتى بها غيره، وهنا مدح للزمخشري، فهو يمدح نفسه بأن جعل من نفسه الأوحد في هذا العلم من بين أبناء عصره، فما كان رفضه إلا لما أصاب أهل زمانه من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فالقول كناية عن الضعف والوهن الذي أصاب هذا الزمان في رجاله، فلذلك لن يفهموا أقل ما يقال في هذا الكلام، فضلا عن جهلهم بالبلاغة العليا الواردة في قوله فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، والقول إثبات للقرآن الكريم ببلاغته.

"فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاما مبسوطا، كثير السؤال والجواب، طويل الذيول [والأذناب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه".

وبعد استعفاء الزمخشري ما كان منه إلا الانصياع لطلبهم والإذعان لهم، فجاء قوله (فأمليت) معطوفا مستخدما حرف الفاء الدال على الترتيب، ليدل على

أنه ترتب على كثرة مطالبة إخوانه له ومراجعتهم إياه أن أملى عليهم مسألة في الفواتح (قد يراد بها فواتح السور)، وطائفة من الكلام في سورة البقرة، كان له أن يقول أجزاء من الكلام، ولعله عدل عن ذلك وعبر بكلمة طائفة اعتمادا على معنى جذرها، أنه طاف في سورة البقرة وجال فيها، واختار لهم بعض الموضوعات التي تهمهم في هذا الوقت تحدث فيها، أكد هذا بقوله "كان الكلام مبسوطا) أي أنه بسط الكلام في هذه المسائل ولم يوجزه وذلك لتخيره بعض الموضوعات فاستفاض فيها، وكان منهجه في توضيحها قائما على أسلوب (الفنقلة) الذي وضحه بقوله: "كثير السؤال والجواب"، "والفنقلة اختصار لجملة (فإن قلتَ: قلتُ) كالحمدلة والبسملة، وقد أكثر الزمخشري منها في تفسيره كثرة بارزة حتى صارت طابعا مميزا لتفسيره"(١)، والزمخشري لم يقتصر في استخدامه لأسلوب السؤال والجواب على ما أملاه لإخوانه فحسب، بل كان كشافه حقلا خصبا لهذه الظاهرة، ف"يستخدم أسلوب الفنقلة على جاري عادته في تفسيره"(٢)، والزمخشري في اعتماده على هذا الأسلوب في تفسيره قاصدا إلى إثارة الاهتمام والتشويق إلى معرفة ما يأتي بعد السؤال، فتثبت الفكرة في ذهن القارئ، ويتحقق الغرض لدى المؤلف، وكان الزمخشري يسهب في الشرح والإيضاح مدللا على ذلك بقوله "طويل الذيول والأذناب" أي أنه يلقي السؤال ويستفيض في إجابته، مؤكدا كلامه بالتكرار والجمع بين متناسبين في قوله ذيول وأذناب، وبين قوله: "كثير السؤال والجواب كثير الذيول والأذناب" ازدواج.

ويختم الزمخشري حديثه عما أملاه على إخوانه في بعض مسائل التفسير،

(١) أسلوب الفنقلة عند الزمخشري في تفسيره وبيان خصائصه وفوائده، د/ عبد العزيز جودي، مقالة في مركز تفسير للدراسات القرآنية ٣/١٥.

(٢) جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، ص٢٦٠، دار المكتبي، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

أن قصده منه ، أن يكون مثالا يسيرون عليه، ويهتدون به فيما تشابه عليهم بعد ذلك من أمور مشابهة، لما قيل فيها، بل جعله منارا يهتدون به على سبيل الاستعارة التصريحية، في تشبيهه تفسيره بالمصباح الذي يضيء لهم، مؤكدا هذا بأسلوب القصر عن طريق إنما، "وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه"، أي ما كان ما أملاه عليهم هذا محاولة منه أن ينبههم على كثرة ما يحويه هذا العلم من نكت ودقائق وطرائف تحتاج إلى وقت وجهد، وما كان ما أملاه عليه، إلا بعض من كل.

وقوله ينتحونه ويحتذونه توحي إلى أنهم بحاجة إلى جهد في محاولة الإتيان بمثل ما قال والقياس عليه.

وبعد أن فرغ الزمخشري من الحديث عما أملاه على أصحابه من الفئة العادلة، أخذ يبين لقارئه أسباب تأليفه لكتاب الكشاف، فيقول عن السبب الأول: ""فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة[١] بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة[٢] من أهلها –وقليل ما هم– عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حراصا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي".

أي إنه بعدما عزم على الرحيل إلى مكة والإقامة في الحرم، عرف أن مملاه قد ذاع صيته، وطارت شهرته في البلاد، فما مر على بلد في رحلته من خوارزم إلى مكة، إلا وجد فيه من يتشوق إلى الحصول على ما أملاه على أصحابه، مما حرك فيه ساكنه ليكتب في التفسير.

والزمخشري صاغ فكرته في أسلوب حكيم رصين، مستدعيا العطف بالفاء

(١) إناخة: مصدر أناخ، وأناخ بالمكان: أي أقام به.

(٢) المسكة: ما يتمسك به، والمسكة: العقل الوافر والرأي.

التي تفيد الترتيب في الأحداث، فالزمخشري في مقدمته، اتبع أسلوب السرد، كأنه يقص علينا قصة تفسيره ورحلته مع فكرة تأليف كتاب يضم تفسير القرآن كله، على غير نظم من سبقه من المفسرين، يهتم فيه بالنكات واللطائف، فطال زمان التفكر في الأمر، عبر عنه بقوله (فلما) التي تدل على وجود الشيء بوجود غيره، أي أتت إليه فكرة تأليف الكشف وقتما سافر إلى مكة لأسباب عدة.

وقوله صمم العزم، فيه تجسيد وتجريد، فالتجسيد في نسبة الفعل صمم إلى العزم الذي هو شيء معقول لا يدرك بالحواس الخمس، والتجريد أن جرد من عزمه عزما آخر، فقال العزم مطلقا ولم يضفه إلى نفسه فيقول فلما صمم عزمي، أو فلما صممت، والسبب في هذا العدول فيه إرادة من الزمخشري، أن كل الأمور قد تهيأت للبداية في هذا التفسير، وأن حثه على ذلك كل الأمور المحيطة بها، أولها فكرة سفره إلى مكة ومجاورته للمسجد الحرام.

فيرى أن هذا هو المقام المناسب فهو بيت الله الذي فيه سيكتب عن كتاب الله القرآن الكريم.

ثاني هذه الأسباب: ما وجده في رحلته من تلهف الناس الذين بهم رجاحة العقل وصواب الرأي وقليل ما هم ' عبر عن ذلك بقوله: " وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة[١] من أهلها –وقليل ما هم–" بالتعبير بالموصولية للتعظيم من شأنهم، وجاءت وقليل ما هم جملة اعتراضية تفيد أن من لديه رأي راجح صائب فئة قليلة في قومهم، هذه الفئة صورهم في صورة " عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حراصا على اقتباسه"، عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى: كناية عن شدة الانتظار وطول مدته. إلى جانب الاستعارة في تشبيه ما أملاه بالماء الذي يروي غلتهم، وما رآه هذا هو

(١) المسكة: ما يتمسك به، والمسكة: العقل الوافر والرأي. .

السبب الأول في معاودة التفكير في كتابة الكشاف.

السبب الثاني جاء متمثلا في قوله: "فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس[١] –أدام الله مجده– وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبدا، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه– في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه[٢] والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض" وهو أن علي بن حمزة بن وهاس، وهو من هو في أهله فهو الأمير الشريف يمتد نسبه إلى آل رسول الله، ومدحه الزمخشري فجعله الفص وسط قومه والنكتة بينهم في العلوم الدينية مع كونهم لهم محاسن ومناقب كثيرة، كناية عن كثرة علمه، أكد ذلك باستخدامه التعريف في وصفه له بقوله النكتة والشامة.

وبعدد أن ذكر حسبه وأوضح وسمه، تحدث عن وقع مؤلفه الذي أملاه على أصحابه فكان أعطش الناس كبدا، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر

---

(١)علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس أبي الطيب: يعرف بابن وهاس من ولد سليمان بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. مات بمكة في سنة نيف وخمسين وخمسمائة وكان في عشر الثمانين، وكان أصله من اليمن من مخلاف ابن سليمان: كان شريفا جليلا تماما من أهل مكة وشرفائها وأمرائها وكان ذا فضل غزير، وله تصانيف مفيدة، وقريحة في النظم والنثر مجيدة، وقرأ على الزمخشري بمكة وبرز عليه، وصرفت أعنة طلبة العلم إليه، وتوفي في أول ولاية الأمير عيسى بن فليتة أمير مكة في سنة نيف وخمسين وخمسمائة. وكان الناس يقولون: ما جمع الله لنا بين ولاية عيسى وبقاء علي بن عيسى، ينظر: معجم الأدباء، ص٤/١٨٣٢، دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط ١٩٩٣م.

(٢) مفازة بعيدة .

أنه كان يحدث نفسه–في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه، والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض" والقول كله كناية عن تطلع هذا الشريف إلى الحصول على المؤلف، فجعله أعطش الناس كبدا، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، وعبر عن ذلك باستخدام صيغة أفعل التفضيل في أعطش، وألهب، وأوفى تأكيدا على شدة الرغبة ومبالغة في تصويرها.

"حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه– في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه، والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض" بقطع الفيافي وطي المهامه: استعارة مكنية فيها تجسيد للفيافي وكأنها شيء يقطع.

وبعد تصويره شدة الحاجة إلى التفسير، فما كان جوابه إلا أن استجاب الزمخشري للأسباب الخارجية من إرادة من سأله تأليف مصنف في التفسير، كما كانت له أسبابه الذاتية التي كشف عنها بقوله: فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر" فقوله: أخذت مني السن كناية عن كبر السن، وفيه استعارة أيضا، وقوله : تقعقع الشن: كناية عن الضعف وبين السن والشن جناس، وقوله: دقاقة الرقاب: كناية عن الكهولة، أي أنه لما وجد نفسه قد بلغ الهرم أراد أن يختم حياته بما فيه عظيم منفعة وفائدة ولا أنفع من كتاب الله عز وجل والخوض فيه شرحا وتحليلا واستنباطا، ولكنه في تفسيره اختصر فيه لإرادة الانتهاء منه في مدة وجيزة، وقد حدد هذه المدة بقوله:

ووفق الله وسدد، ففرغ [منه] في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه– وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم، أسأل

الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سببا ينجيني، ونورا [لي] على الصراط يسعى بين يدي وبيميني، ونعم المسؤول(١).

يرجع الزمخشري الفضل في الانتهاء من الكتاب إلى الله عز وجل، فهو الذي وفقه إلى ذلك، وفي قوله فرغ منه تجريد من نفسه، كأنه يتحدث عن شخص آخر، تأدبا مع الله عز وجل، وتنكيرا لنفسه في مقام ذكر الله جل وعلا، فيذكر أنه حينما شارف الستين من عمره والمشار إليها بقوله وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، بدأ في كتابة هذا التفسير استجابة لما طلب منه من غير واحد، وقد أنجزه في مدة خلافة أبي بكر الصديق وفي هذا إشارة واضحة إلى قصر المدة لعلو الهمة بغرض الانتهاء من هذا العمل الجليل، وقد خص مدة خلافة أبي بكر الصديق بالذكر، لأنه أقصر الخلفاء خلافة من بين الخلفاء، حيث كان المقرر للانتهاء من هذا التفسير ثلاثين عاما، وبذكر خلافة أبي بكر الصديق أراد الزمخشري أيضا أن، يشير إلى مكانة تفسيره في نفسه وكذلك في نفوس طالبيه، فكما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أول من جمع القرآن الكريم، فكذلك الزمخشري هو أول من فسر القرآن الكريم بصورته التي عليها، فلم يكتف بتوضيح المعاني، بل صرف جل اهتمامه إلى بيان إعجاز القرآن الكريم عن طريق نظمه.

وأوكل سبب سرعة الانتهاء من التفسير إلى مجاورته لبيت الله الحرام، فببركة هذا المكان انتهى من كتاب قدر له أن ينتهي منه بعد ثلاثين عاما، أكد ذلك باعتماده أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء في قوله: وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم"

والزمخشري وإن استفاض في افتتاحه مقدمته، فقد أوجز في الخاتمة، فدعا

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: المقدمة ص٤ .

لنفسه بأن يجعل تعبه في هذا العمل معبرا عنه بالموصولية تعظيما لهذا العمل في قوله: "ما تعبت" راجيا من المولى أن يجعله سببا من النجاة يوم الصراط، وأن يكون له نورا يسعى بين يديه، على سبيل الاستعارة التصريحية، في تشبيه التفسير بالنور، والتبعية في تشبيه الإحاطة بالسعي، فكان له براعة الاستهلال وحسن والانتهاء، ومراعاة الانتقال من غرض إلى غيره بحسن التخلص في مقدمته بيسر وسهولة.

***

الخاتمـــة

بعد التطواف في مقدمة الزمخشري في محاولة جادة للتعرف على عناصر المقدمة، وقيمتها لدى المؤلف، وعلاقتها بالكتاب، واشتمالها على المنهج الذي اعتمده المؤلف في كتابه، نجد أن الزمخشري قدَ بَرعَ فِي مقدمته فَي اختيارِ العَناصرِ الأساسيَّةِ مِن اللُّغةِ فِي بِناءِ مُقدِّمَتِهِ، لَيضَعَ القارئَ بتَلكَ العَناصرِ حيالَ مَوضوعِهِ بِصورةٍ مَباشرةٍ صَريحةٍ مِن غيرِ أن يُسهِبَ فِيهَا أو يُحلِّقَ بِهَا خَارجَ مُناسبةِ الكتاب.

وقد جاءت مقدمة الزمخشري في كشافه مفتاحًا لكتابه، لا يستطيع أحد الولوج إلى الكتاب إلا باستخدامها، ففيها المنهج الذي سار عليه في "تفسيره، الذي حقق فيه نظرية النظم التي قعد لها عبد القاهر الجرجاني، وأخذ الزمخشري بذرتها فأينعت في تفسيره، وآتت أكلها فيه، لذلك قال في مقدمته: "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ... إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان"(١).

ولهذا السبب اصطفى الزمخشري علم البلاغة في منهاجه في كتابه، ليتكشف من خلاله دقائق المعاني ومكنون الآيات، وهو بذلك يحتاج إلى منهج إقناعي، يستطيع من خلاله أن يمكن الإيمان في قلوب الناس، ويحسن علاقة الناس بعضهم ببعض، كما يحسن علاقتهم بربهم، ولا يستطيع منهج آخر أن يفعل ذلك.

ومن خلال قراءة مقدمة الزمخشريّ في كشافه قراءة بلاغية، نجد أنَّه كان جلّ اعتماده على البلاغة ليتمكن من بيان أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، فالتفسير عند الزمخشريِّ كما تبيَّن من مقدمته ليس معرفة معاني القرآن فحسب،

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١.

بل أيضا بيانٌ لأسرار الإعجاز، ومن أجل ذلك اتخذ البلاغة آلته لفهم معانيه والوقوف على أسراره.

وقد تتبع الزمخشري في الإبانة عن منهجه طرق الإبانة عند العرب، فهو الفقيه اللغوي العالم بأسرار اللغة ومكامنها، تتكشف له الأسرار، وتتأتى له المعاني طوعا. وقد طوع البلاغة لهدفه هذا فمزج بين علومها الثلاثة المعاني والبيان والبديع في كل موضع استدعى علما منها مراعيا مقتضى الحال.

فالزمخشريُّ لم يهمل علم البديع في كشافه، اعتمادًا على ذكره في المقدمة لعلمي المعاني والبيان فقط، فقد زخرت مقدمته بألوان البديع، ولكنَّ مسألة تحسين الكلام وتنميقه لم يكن الزمخشري من الدعاة إليها، بل دعا إلى استخدام ألوان البديع في مقامها المناسب لها، ونفهم ذلك من قوله: (إنّ ما سمّاه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع، لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مطبوعه مصنوعه، إلَّا ممّا قلق في أماكنه، ونبا عن مواقعه فمنبوذ بالعراء مرفوض عند الخطباء والشعراء)[(١)]. وجاءت المقدمة زاخرة بالمحسنات المعنوية واللفظية لما للمقدمة من أهمية في لفت انتباه القارئ فهي عتبته للدخول إلى الكتاب، فنجد براعة الاستهلال وحسن التخلص والانتهاء وما تخللهم من الطباق والجناس والسجع ومراعاة النظير والازدواج، والاقتباس.

وقد استحدث الزمخشريّ استخدام أسلوب القنفلة، وهو السؤال والجواب (فإن قلتَ....قلتُ)، وهو أسلوبٌ مهمٌّ في الإقناع.

كما اعتمد على أسلوب القصر في مقدمته كأداة للإقناع، حيث كان القصر تأكيدا لما يريد قوله، كم كان للتعبير بالموصولية كبير الأثر في إيصال المعنى.

(١) الزمخشري . مقامات الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ،١٩٨٧م.ص٠٤

كما عمد إلى الخروج عن مقتضى الظاهر في استخدام أسلوب الأمر في النصح والإرشاد والتنبيه، واستخدام الاستفهام في التقرير والتأكيد.

وقد أكثر الزمخشري في مقدمته من علم البيان فزاوج بين الاستعارة والكناية في مواضع متعددة من المقدمة لتأكيد المعنى وتصوير الأحداث.

هذا والله أعلى وأعلم وبه الهداية والتوفيق.

***

ثبت المصادر والمراجع

- أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان، نشر دار صادر، بتحقيق: إحسان عباس.
- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري بتحقيق أحمد عبد الموجود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، مكتبة العبيكان، (الرياض: ١٩٩٨م).
- أساس البلاغة، للزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م.
- أسلوب الفنقلة عند الزمخشري في تفسيره وبيان خصائصه وفوائده، د/ عبد العزيز جودي، مقالة في مركز تفسير للدراسات القرآنية.
- إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤هـ-١٣٧٢م)، البداية والنهاية، نشر: دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة، بتحقيق: علي شيري، ط١، ١٩٨٨م.
- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل- بيروت، ط٣.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد أبو موسى، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، مكتبة وهبة- القاهرة.
- البلاغة تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف، دار المعارف .
- التطبيقات البلاغية في ضوء الدرس الإعجازي: تفسير الكشاف للزمخشري أنموذجا، د/ محمد مقدم، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد ١٠، عدد ٣، السنة ٢٠٢١م.
- التمثيل والتخييل كآليات للتأويل عند الزمخشري في تفسيره الكشاف – دراسة للمنهج التأويلي، د/ صهيب أمين نادر، مجلة جامعة تكريت للعلوم ، العدد(٥)، المجلد (١٩).

- جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- الدليل إلى المتون العلمية، عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، ص٤٠، دار الصميعي، ٢٠٠٨م.
- دور الزمخشري في المحافظة على أصالة اللغة العربية من خلال تفسيره "الكشاف".
- ديوان الزمخشري، ص ٣٩٦.
- الزمخشري . مقامات الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ،١٩٨٧م.
- الزمخشري، د/ أحمد الحوفي، دار الفكر العربي.
- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي،١٧١- دار الكتب العلمية- ط١، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٢م.
- السيميوطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، يناير/ مارس ١٩٩٧م.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، (دمشق: ٢٠٠٨م).
- عبقرية التأليف العربي.
- علم البيان، لعبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٢م.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية – بيروت- ١٤١٩ هـ.
- كشف الظنون.
- لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف، القاهرة.

- محمد القرشي (٧٧٥هـ-١٣٧٣م)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، كراتشي، باكستان، بتحقيق: مير محمد.
- محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ-١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، بتحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، ١٩٨٥م.
- محمد بن أحمد الذهبي، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت، بتحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.
- معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط ١٩٩٣م.
- المفسرون حياتهم ومنهجهم، السيد محمد علي إيازي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، (طهران: ١٣٧٣).
- منهج الزمخشري في تفسير القرآن، مصطفى الصاوي الجويني، ط٣، دار المعارف.
- نعمان بن محمود الألوسي (١٣١٧هـ-١٨٩٩م)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، نشر مطبعة المدني، ١٩٨١م.

***